زهرة سالم
وجع الذكريات
رواية
A.Naim
Editions Thakafia

زهرة سالم

وجع الذّكريات

رواية

حكاية مُستوحاة من واقع امرأة ظُلمت وبلغ الضّيم حولها أشدّه. فيها منّي ومنك وفيها من الخيال شطحات وفيها من الواقع وقائع أليمة. امتزجت لتخلق هذا المكتوب المقروء.

زهرة سالم

الفصل الأوّل "بيّة"

تتزاحم في المخيّلة صور كثيرة في ذاكرتها المتعبة. صور يجتاحها الكثير من السّواد ويغشى ملامحها ضباب يكاد يمحو معالمها... و يمتدّ العمر أمامها حافلا بمآس لا حدّ لها... ترمق الأرض الممتدّة أمامها. فضاء لا محدود لا نهاية له. يحرّرها ولو قليلا من أغلال الماضي ومن أسر الذكرى... كلّ شجرة زيتون أو لوز لها معها حكاية لا تمّحي عالقة بوجدانها... من قال أنّ الأشجار لا تتكلّم، من جرّدها من الأحاسيس... إنّها تشاركها حزنا في القلب عميق... أكثر من هذا العالم المليء بأناس ما أدركوا يوما أنّها كائن يشعر ويتألّم ويفرح... عاشت بينهم سنوات. عمر من المعاناة الصّامتة... ماذا لو حدّثت هذه الأرض عن لوعة. عن غربة تجتاح حنايا القلب... علاقة عميقة غامضة بين الإنسان والمكان لا يدرك كنهها إلاّ من عاشها وخبر أسرارها فما بالك لو كان هذا المكان أرضا معطاء. عالما من الجمال والحياة. حبّ ما ذاقه إلاّ عاشق ولهان. حبّ افتقدته وحلمت به وما رأت منه في الواقع ولو بعض السّراب... تسافر بها الذّاكرة إلى البعيد. إلى زمن ولّى وانقضى. إلى ثلاثينيّات القرن العشرين... مضت أكثر من سبعين سنة.

طفلة صغيرة عاشت بين وهاد ووديان. بين صحار وبواد. بين مواسم الحرّ ومواسم القرّو ما بينهما... خيمة تُنصب هنا وهناك... ترحال قبليّ بحثا عن مرعى وماء... حيوانات تقود البشر.يتبعونها. يبحثون عن ملاذ لها ولا يبحثون عن ملاذ لأرواح تائهة. إلى الشّمال وإلى الجنوب يشدّون الرّحال. رحلات فيها الكثير من العناء... قد تستمرّ شهورا وقد تدوم سنوات... وكانت تجد فيها أحيانا بعض الحلاوة وبعض العزاء.

ترتاح قليلا تحت شجرة زيتون متشابكة الأغصان وارفة الظّلال تبحث عن ملجإ وعن بعض من نفسها الملتصقة بهذه الأرض عن روحها التي تعانق الشّجر والتّراب والماء... يتكاملون ليرسموا لها حياة تبدو مثل الخيال ... ما تذوّقت حلاوة إلاّها والباقي هو "عُمر الكلاب" كما تقول هي. علّها تجهل أنّ الكلب عند بعض القوم سيّد وعند آخرين خل وفيّ...

ترتحل بها مركبة الزّمن... إلى طفولتها... إلى زمن يحمل في طيّاته الكثير من الشّقاء... يوم مشابه لهذا اليوم على ما يبدو. هكذا أخبرتها أمّها. يوم اشتدّ قيظه... ولدتها أمّها بين أوتاد الخيمة... اجتمعت النّسوة في انتظار المولود علّه يكون ذكرا فينعمن ببعض ما خزّنته الخالة مبروكة خاصّة وأن لها ابنتين وهي تنتظر بفارغ الصبر ذكرا... ولم لا قد تُقام وليمة ويأكلون لحما في سنة جدباء. كان الجوع عنوانا لها... بلغ بهم الفقر حدّ الاكتفاء بوجبة واحدة... صرختها الأولى صاحبتها صرخة الأمّ المتألّمة لإنجابها أنثى للمرّة الثّالثة...
الولادة في ذلك العالم البدويّ لم تكن مؤلمة للمرأة فقد واجهت الأصعب والأكثر إرهاقا. ما يؤلم أكثر كان إنجاب أنثى فما بالك لو كنّ أناثي؟...

"بيّة" اختاروا لها هذا الاسم وكانت قد وُلدت في شهر رمضان وحملت من معانيه الكثير لفحات حارّة لمرارة زمن ثقيل. ستصيبها بجروح لا تندمل وستشعل في القلب حرائق لا تنطفئ وترسم على جدار العمر معاناة سحيقة... يكفيها نعمة الحياة... وما جدوى جمال الاسم وأيّام العمر دميمة فيها من قُبح النّفوس الكثير... و إن تواجدت فيها مسحة من نور وبهاء فهي من الزّمن مسروقة وعن أعين الرّقباء موؤودة... قد تمرّ بين ثنايا عمرها لحظات عابرة مثل طيف أو سراب كلّما أرادت الإمساك بها أو حتى مجرّد

الاقتراب منها تلاشت لتخلق خيبة تليها خيبات بطعم العلقم... و هل لأنثى في عالم بدويّ ذكوريّ أن تشعر بالفرح أو حتّى تحلم به...

"الحلم"... هل كان لها أن تحلم... حلما يخصّها وحدها، حلمها، حلم "بيّة"، مُحال أن يكون... حلمها في طفولتها كان أن يكون لها أخ ... الأخ الذي أخبروها أنّه سيكون السّند والعاضد لأخواته. وحامي العرض والدّيار وبه يتواصل نسل الآباء والأجداد ولا يمّحي من ذاكرة القبيلة. الذي بدونه لن تستقيم الحياة. علّموها أن إنجاب البنات دون ذكر هو وصمة عار... كيف لأمّها أن تُواجه نساء العشيرة دون ولد... دون ذكر... كيف لوالدها أن يلتقي بالرّجال وهم يتفاخرون بأسودهم وبأشبالهم وهو لم ينجب إلاّ...

وبعد سنة كان المولود الخامس ذكرا... سُمّي "العيد". فقُدومه عيد بالنّسبة إليهم وربّما أكثر بهجة من الأعياد التي تعوّدوا أن يحتفلوا بها. تلك للجميع. لأمّة محمّد. أمّا هذا فعيدهم. لعائلتها وحدها" كما قالت أمّها بفخر... إنّه عيدها لتشعر أنّ أمومتها قد اكتملت بولادته وأنّ أنوثتها لم تعد على المحكّ...

عيد بالنّسبة للأب ليستطيع أن يحدّث قومه وخلانه والقاصي والدّاني عن وليّ العهد وأن يمحُو وصمة إنجاب الأناثي... الآن بات له أن يحلم بإنجازات "فارسه" القادمة....

ارتسمت على الشّفتين المتعبتين ابتسامة عابرة. وتذكّرت مولد أخيها. بدا لها وكأنّه من زمن غابر. لكنّها لن تنسى ما أدخله على أهل البيت من غبطة وفرحة وكيف أقيمت اللّيالي الملاح وتعالت أصوات النساء بالزّغاريد وببعض الأغاني البدويّة... لأوّل مرّة ترى والدها لا يُخفي وقاره ولا يحفل بنظرات فضوليّة. تسترق النّظر من داخل الخيمة فتلمحه راقصا مازحا. و تيقّنت أنّه يمحو خيباته القديمة وما ارتسم على حياته من قتامة وحزن لإنجابه فتيات رغم حبّه لبناته. كان ينعزل مع قطيعه يبثّه شكواه وخوفه من أن يصبح نموذجا لأب البنات وأن يتطاول عليه كلّ من هبّ ودبّ فلا سند له فتضيع الهيبة والاحترام مع ولادة كلّ أنثى...

عشقهم للذكر جعلها منذ وعت ذلك تتقن كلّ أعمال الرّجال بل وأفضل منهم. خدمت الأرض بعزيمة وبتفان. حملت الأثقال ولم تشتكي. رعت الأغنام

وتحمّلت قسوة الرّعاة وقحْط المراعي. سلخت الذبيحة وأبدعت في ذلك وما تفوّق عليها رجل في عملها. ولو كان مُمكنا لقامت أيضا بنحْر الشّاة. وكأنّها تقتل الأنثى بداخلها وتئد معالم الأنوثة علّ ذلك يخفّف من وطأة ما يعتمل داخلها من صراع ويُدخل الرّضى إلى نفوس من حولها فينسون جريمة أنوثتها.

تمشي بخطوات متثاقلة بطيئة تنصت إلى همسات الأشجار حولها تنوح مودّعة ... تقف تحت أشعّة الشمس تمتزج خيوطها بخطوط وجهها وتجاعيده.تحدّثك بفواجع كثيرة وبألم يسري في شراييها إلى حدّ أصبح جزءا منها ومن وجودها.لا تكاد تنطق ببضعة كلمات إلاّ وتختمها أو تنمّقها بمعجم الأسى والحزن وكأنّها ما تعلّمت من معاجم اللّغة إلاّه...

فجيعتها الأولى والكبرى كانت منذ اكتشافها بعض طلاسم المجتمع البدويّ.. المجتمع الذكوريّ.. منذ وعت أنّها إلى جنس النّساء تنتمي وهي تلعن هذا الانتماء فيتبادر إلى الذهن سؤال هل كان لهذه المرأة أحلام... رغبات... شهوات... طموحات... هل أخذها الشّوق إلى مجهول... إلى كلمات رقيقة تُلامس القلب وتروي بعضا من جفاف عالمها؟... حكايات العشق والغرام في ذلك العالم كانت نادرة ومن الخطايا. من المسكوت عنه. فمن عشقت رجلا أو رغبت فيه هي مدنّسة وعاهرة وخائنة لشرف القبيلة. كانت تلك الحكايات أقرب إلى الأساطير التي تقضي بها الفتيات سهر اللّيالي إن كان في ركن من الخيمة أو بعيدا عن الأعين والأذان خاصّة في المرعى أو عند جلب الماء... للتّسلية لا غير... سمعت عن "غالية" التي عشقت غريبا عن الدّيار. كان يعمل عند والدها سيّد من أسياد العشيرة فرفضه لفقره وطرده شرّ طردة.فكانت "غالية" تدّعي خوفها في اللّيل وتقول أن عيون الغنم ترعبها في ذلك الوقت حتى يطمئنّ الجميع إلى تواجدها في الخيمة إلى أن فرّت مع حبيبها في ليلة ظلماء اشتدّ فيها عواء الذئاب ونباح الكلاب فخلّفت وراءها خزيا وعارا وضحكا بين الشابّات كلّما تحدّثن عن حيلتها للهروب وما علموا من أمرها شيئا ولا بلغهم خبر عنها مذ ذلك الحين.

بلغها خبر"سالمة" التي مات زوجها وهي صغيرة السنّ وتركها مع ابنة ذات ثلاثة عشر ربيعا .و كانت الابنة مخطوبة منذ وُلدت لابن عمّها ولكنّه عشق

الأمّ الأرملة والتي بادلته العشق فتزوّجا وأصبحت المرأة حديث المجالس ومجلبة لسخريّتهم ولحسد بعض النساء. وتوارثت الحكاية الأجيال بعد الأجيال...

كان الحبّ في القاموس البدويّ من المحرّمات. ربما يُعاد النّظر فيه إذا كان العاشق من عليّة القوم وأثريائهم...

هذا لم يمنع من ترنمّهم بالكثير من الأغاني البدويّة العاطفيّة لتخفّف عنهم بعضا من عناء الحياة وتعبها ولإدخال بعض المسرّة واللّهو على النّفوس المُتعبة.

أمّا هي فقد اختارت أن تُرضي الآخرين. أن تكون مثل الرّجال. قد خلقها الله امرأة ولكن ستقوم بأعمالهم وأفضل منهم. لن تنظر إلى جسدها كجسد له شهواته ورغباته. ستنظر إلى مدى قدرته على العطاء وعلى العمل... لن تأخذ. ستعطي... لأجل ذلك خُلقت. ستجعل والدها يفخر بها. ستخدم كلّ ذكر يرتبط اسمه بها...

تذكر كيف كانت بعض أغاني الرّاديو تشعرها بالفرح وتهيّج بعض الأحاسيس ولكنّها كانت تكتمها وتكتم إعجابها بتلك الأغاني في ظنّها أنّها ترتكب إثما وربّما وجدوها متلبّسة بالجرم المشهود فيا للفضيحة... هذا ماكان يدور بخلدها آنذاك... و مع ذلك كم طربت ل"صليحة". كثيرا ما ذهبت إلى مورد الماء وأنصتت إلى صويحباتها يغنّين "فراق غزالي" أو "عرضوني زوز صْبايا" وترنّمت معهنّ بصوت خافت أقرب إلى الهمس الخجول خائفة من أذان منصتة... ابتسمت عندما ذكرت أغنية" خالي بدّلني". ظنّته الخال أخ الأمّ ولكن تبيّن لها فيما بعد أنّه الحبيب.

تذكر كيف قهقهت الفتاة الشقيّة "نوّة" وهي تُخبرها: "كم هو محظوظ الخال. حاضر في كثير من الأغاني. فعلا الخال عطوف على بنات أخته ". أجابتها:"عن أيّ خال تتحدّثين؟".

"الخال... الخال المذكور في أغنية "صليحة" "خالي بدّلني" انفجرت "نوّة" ضاحكة. كادت بنت الحرام أن تتبوّل على نفسها من شدّة الضّحك. وبقيت "بيّة" صامتة خجلة من جهلها بهذه الأمور وكادت أن تُقاطع صديقتها

لسخريّتها منها خاصّة وأنّها تندّرت بما حصل وحدّثت به الأخريات... من أيْن لها أن تعلم ما بها؟. ما الذي ألمّ بها؟. سنوات مرّت على تلك الفترة. دهر بحاله. زمن بعيد بعيد."نوّه" ماتت. و"صليحة" لم يسمع بها شباب اليوم ولا استمع إليها. كم من مغنّ علا صيته بعدها. وإن كانت هي فيما مضى تخجل من كلمات أغان. فاليوم تعدّدت وسائل الإعلام وما تراه على شاشاتها يندى له الجبين بل إن أحفادها يتحدّثون عن صديقاتهم دون خجل وكذلك حفيداتها بل يتباهون بذلك. "آه ذهب زمن الحشمة واندثر". بل أدهى من ذلك و أمرّ ترى الأسر مجتمعة تشاهد فيلما أو مسلسلا. هي لا تفرّق بينهما. لا حياء ولا خجل. كلام في الحبّ... مشاهد في غُرف النوم... قُبل... تدهورت الأخلاق "وا حسرتاه على زمننا...

يبدو أنّنا كدنا نصل إلى يوم القيامة". تنهّدت وكأنّها تُخاطب أحدا "بنات اليوم لا دين ولا ملّة. حسرتي على جيلنا. كان الحياء زينتنا. ولّى زمن العفّة والأخلاق وا أسفاه". سمعت صدى صوتها بين الأشجار فتعوّذت من الشّيطان... ربّاه إنّها تتكلّم وحدها... أتكون الشيخوخة أخذت منها مأخذا... أم الحنين إلى الأيّام الخوالي أخذ بمجامع القلب... أم أيّام الوداع أوقعت بها في شراك الجنون؟..

عادت يومها من المرعى وقد أخذ التّعب منها مأخذا والجوع ينخر أحشاءها... جوع شديد... ولكن عليها أن تسقي القطيع أولا وتُطعمه... الحيوان في البادية يحتلّ مكانة هامّة ويُلقى عناية تفوق أحيانا عنايتهم بأبنائهم ...يكاد يكون سبب الوجود البشريّ.. من تموت له شاة أو خروف أو جمل فكأنّه فقد أحد أولاده خاصّة إذا لم تكن ميتة "حلالا". يندب حظّه العاثر والعين الحاسدة والزّوجة الشّؤم ومقدم الابنة النّحس....

ويبحثون عن الكثير من الأسباب لهذا المصاب الأليم. وقد يصل الأمر حدّ تقديم العزاء من قبل الأهل والخلاّن وربّما عابري السّبيل أيضا... إنّها مورد رزقهم ومصدر طعامهم ولباسهم وسكنهم وأنسهم في الفلاة... وهذه المصائب كانت تزيد من شدّ أواصر القبيلة وتربط بين أفرادها وتزيد من تعاونهم وتآزرهم.. فكم تضامنوا وكم مدّوا يد العون لفقير منهم ولمنكوب...

لكل من تحل به خُطوب الحياة وتحمل له الأيّام نوائب لا قُدرة له على تحمّلها أو مُواجهتها....

بدت أمّها في ذلك اليوم على غير عادتها... كأنّها تُخفي شيئا أو تكتم خبرا أو ... أو... خبرا سيّئا... لا تظنّ ذلك وإلاّ لانجلى الأمر منذ وطئت رجلاها مضرب الخيمة وربّما كان بلغها الخبر وهي في المرعى.فليطمئنّ قلبها إذن... تراها عزمت على زيارة أحد الأولياء الصّالحين. ربّما "جدّها". ستأخذها معها إلى أرض أجدادها في الجبل البعيد هناك... ستغنم بعض الحلوى...آه البطن خاو والجوع قاس...ولم لا طعاما لذيذا من تلك الأطعمة التي تجود بها المناسبات المفرحة.... شطح خيالها بعيدا. لم تعد تعنيها أمّها وتغيّرها... أضحى الطعام شاغلها الأكبر... رسمت في الخيال وليمة فيها من الأكل الكثير وفيها من الشّراب ما حلا وبل الرّيق... اليوم نفذت قربتها من الماء... وهاهي تتضوّر جوعا بعد رحلة الرّعي التي امتدّت من الصّباح الباكر إلى ما بعد الضّحى...

"عمّا قريب ستعيشين في الجبل... ستنعمين بحياة جيّدة هناك". "لابدّ أنّني سأرافق أبي والقطيع. فعلا لا أستطيع مفارقة العنزة الحوي والعنزة القرعاء. إنّها تحتاجني. فهي كثيرا ما تُصاب في معاركها مع الماعز. المسكينة لا قُرون لها ولا تستطيع الدّفاع عن نفسها. والعطراء ذات الأذنين الحمراوين. والصّبحاء والرّخماء نعجتي البيضاء المدلّلة والنّعجة البرقاء...

سأجهّز الرّبق لربط الجداء والحملان وخاصّة التّيس والكبش وكذلك الشّملة..."

قاطعتها أمّها بحزم "بل ستُفارقيننا جميعا. اليوم خطبك ابن خالي. "أحمد". ربّما سمعت به. والدك وافق وأعطى كلمته وسيكون العُرس إن شاء الله بعد أيّام. الزّواج مصير كل فتاة وصوْن لها". الزّواج فعلا مصير كل فتاة... ضرورة لا مفرّ منها. إنّها تُخبرها. لا تسألها الرّفض أو القبول... كانت تعي جيّدا أنّ هذا اليوم سيأتي. ولكن ليس بمثل هذه السّرعة... لم العجلة؟. لم تُخامرها أيّ سعادة ولا انتابتها اللّهفة والشّوق لمصير جديد ولعالم الزّواج...

الزّواج في المجتمع البدويّ طاعة للزّوج وخاصّة أهله وخاصّة أمّه وإنجاب لذكر يمثّل امتدادا للعائلة ولاسمها ومحافظة على وجودها وإحياء لجذورها التي ربّما تعود إلى إحدى القبائل العربيّة المعروفة. والتي يتباهون بانتمائهم إلى أحد فروعها وبأنّهم قريبون من أرض مقدّسة. الأرض التي أنجبت الرّسول عليه الصّلاة والسّلام. ولا ضيْر إن كان هناك بعض المبالغة والكذب في إثبات النّسب خاصّة وأن جهلهم بالقراءة والكتابة إلاّ قلّة منهم لا يمنعهم من تمسّكهم بإسلامهم وبفهمهم البدويّ له....
تمّ الزّواج. و منذ أحضروا لها أثناء عقد القران الكبش الأدغم ذي الوجه الأسود وهي تشعر بشيء كئيب بنذير شؤم يلوح في الأفق... في أيّام قادمة... الجميع يتطيّر منه وهي قد ورثت ذلك عن القوم قد جرّبوا وقد خبروا. أ يكون حالها أفضل؟

مُحال كلّما حضر هذا الكبش في أحد الأفراح إلاّ وانقلب إلى مأتم أو كاد فتُسلب البهجة والمسرّة. كانت مُطيعة. فما تعلّمت إلاّ أن تكون كذلك... أعمال متنوّعة منذ الأيّام الأولى...

وأكثر ما أرهقها صعود الجبل خاصّة وهي لم تتعوّد على ذلك... كان الصّعود بمثابة رحلة صعبة وشاقّة من أجل اقتلاع عشبة الحلفاء تورّمت يدها واختلطت الحنّاء بالدّماء. قالوا "المسكينة مازالت عروسا. لم تنعم بأيّام عرسها". وقالت الحماة" عليها أن تعمل فليست أفضل منّا. ستتعوّد مثلنا". ولم تقُل هي شيئا. لم تتعوّد أن تقول لا أو تتذمّر. ما تعلّمت إلا الطّاعة والاعتراف بالجميل وإن لم يكن موجودا... ثم ليس لها أن ترفض فذلك مورد رزق يقتاتون منه بعض الملاليم... وليس مهمّا إن تورّمت الأيادي أو سالت منها الدّماء.... المهمّ أن ترضى"عمّتها" كما كانت تناديها، أمّ زوجها المرأة المتسلّطة التي لا يعجبها العجب ولا تتوانى عن تذكير"بيّة" أنّها صاحبة فضل عليها إذ اختارتها دونا عن بقيّة الفتيات الجميلات واللاّتي كنّ يسعيْن وأمهاتهنّ لاختيار واحدة منهنّ زوجة لابنها...

جلب الماء أيضا كان مهمّة شاقّة ولكنّها فرصة للقاء الصّديقات وتبادل الأسرار وبث شكوى القلوب والاستفسار عن بعض الأمور فمصدر المعلومات والأخبار عين الماء وكأن الله جعلها ينبوعا للحياة بمختلف

أشكالها في ذلك العالم القاحل. نساء من مختلف الأعمار... هي فسحة وبعض من الحرّية والابتعاد عن "أسر" "عمّتها" التي لا تمل ولا تضجر من اتّهامها بأنّها الزّوجة اللامناسبة لابنها المدلّل الذي كان يستحقّ الأفضل والأجمل أن تكون بيضاء مثلا لا سمراء مثل "بيّة". العقدة الأزليّة للمجتمع البدويّ بياض البشرة عنوان الجمال. زد على ذلك أن "بيّة" نحيفة فكانت لا تتوانى عن معايرتها بهُزالها وأنّها مثل العنزة... ولولا صفقة الزّواج التي تمّت في إطار تبادل النّساء لما اتّخذت "بيّة" كنّة لها فابنتها أيضا تزوّجت العيد أخ "العنزة"...

تمرّ تسعة أشهر محمّلة بالانتظار واللّهفة في انتظار الولادة ليأتي النّصر بإنجابها لذكر اختارت له اسم "نصّر"... ظنّت المسكينة أنّها قد انتصرت على "عمّتها". ولكنّ نصرها لم يدم طويلا... آه يا وجع الأيّام. يا وجع الذكريات... يا قلبا مُثقلا بالهموم... أما آن لك أن تفرح أو ترتاح... ما لهذه المرأة تُناصبها العداء؟... ألن تكفّ عن أذاها؟. لم يشفع لها إنجاب الولد لدى "العمّة" بل زاد من عدوانيّتها ومن مكائدها. وهاهي تجد عروسا جديدة لابنها... و لم تعد "الخادم" كما كان يحلو لها أن تسمّيها إمعانا في إذلالها مناسبة لابنها. وآن الأوان لتعود لأبيها مطلّقة تحمل معها ولدها... فكانت مأساة طلاقها... كيف لها أن تعيش في مجتمع لا مكان فيه لهذا النّوع من النّساء... تصنيف قاس ونظرات مُريبة واتّهامات كثيرة دون مبرّر وإهانات صريحة وضمنيّة وعذاب لا نهاية له... من سيُعيلها ويعيل ابن الثّلاث سنوات... ربّاه أيّ ذنب اقترفت ليكون الطّلاق... رضيت بالقليل بل بالعدم... تحمّلت الأعمال الشاقّة... دأبت على إرضاء الأمّ وابنها وما اشتكت من جبروتهما... كانت مُطيعة تقوم بواجبات لا تنتهي ولم تفكّر في حقوق قد تكون من نصيبها... العودة إلى خيمة الأب وإلى إخوتها وأخواتها أفضل من العيش مع ذلك الرّجل وتلك المرأة... لكن الناس ... ستكون حديث المجالس ومضغة الأفواه وأضحوكة بين النّساء... سيرون فيها الفشل والخيبة... سيهزؤون منها...

كانت تبحث عن الخلاص في اعتنائها بابنها والسّعي إلى تجنّب أيّة محادثة أو حديث مع هذه ومع تلك.... خاصّة نساء العشيرة.

كان والدها رحيما بها... لم يبد انزعاجا من وجودها حُبّا فيها ولعلمه بمعاناتها وما كابدته في الجبل. فكان مُحبّا لابنها عطوفا رفيقا به وهو ما كان يخفّف عنها وطأة ما يُقال هنا وهناك... تبّا لأناس ظالمين وتبّا للألسنة الطّويلة التي يقطر السمّ من كلماتها...

تشعر بالعرق يتصبّب من جسدها النّحيل. فالحرارة في ارتفاع والشّمس تُرسل أشعّتها الحارقة هنا وهناك... تحاول التخلّص من ذكرياتها... من وجعها رغم مرور السّنين... ربّما آن لها أن تُفارق الشّجرة ولكنّها تزداد بها التصاقا... و كأنّها شعرت بمدى حاجتها إليها فتبسط ظلالها وتدعوها إلى طُول البقاء... علّها تجد عندها بعض الوفاء الذي ما وجدته يوما عند البشر... وبعض الخلاص الذي بحثت عنه طوال سنين عمرها وانتظرته بصبر أيّوب وبلهفة النّاسك المتعبّد. انتظرته بصمت وبتذرّع فما بلغته... كلّما شعُرت بالفرح يقترب من عتبتها إلا وارتدّ مبتعدا مسافرا دون إيّاب فتزداد الفواجع ولا تُفارقها خيبات العمر...

كأنّها وُلدت في هذه الحياة لتُعاقب... تكاد تجزم أن ما يحدث لها ماهو إلا جزاء أنوثتها... آه لو خُلقت ذكرا لتبدّل الحال وتغيّر...

الجمل أيضا كان له من عقابها نصيب... ففي يوم يشبه هذا اليوم... لا تعلم لماذا ترتبط كل مصائبها بالأيّام القائظة وبشدّة الحرّ**...**

لم يكن رُغاء الجمل وهديره كالمعتاد. وكان يجب عليها أن تقدّم له طعامه وكانت وحدها في المنزل... الجميع قد انطلق في دُروب الحياة البدويّة الوعرة... جمْع الحطب... رعي الأغنام... جلْب الماء... أعمال متنوّعة و كثيرة... لا تنتهي ولكن لا مفرّ منها... بدا الجمل غاضبا... و كثيرا ما سمعت من أبيها عن ضرورة الحذر من غضب الجمل. كان يُخرج من فمه كيسا هوائيّا منتفخا يسمّى "الهدارة". وكان موسم تزاوج بالنّسبة له وهذا دليل إغراء يقوم به لجذب الأنثى. ولكن لا وجود لأنثاه... توجد فقط الأنثى التي سيصبّ عليها جام غضبه. فحالما انحنت لتضع له طعامه غدرها وبدأ يرفس بقوّة من الجانب ومن الأمام ومن الخلف وهي في حالة ذهول وصدمة.

جمل شبق يهاجم امرأة لا حول لها ولا قوّة... كيف لها أن تتغلّب على هديره الشهوانيّ.
غامت الدّنيا أمامها. سواد يغشى عينيها وألم يتفاقم وقد انقضّ الحيوان الهائج على يديها حاقدا ثائرا لا حدود لغضبه... هديره الشبقيّ ذكّرها بليلة عرسها "ليلة العمر" كما يقولون... ساعات البهجة في هذا العالم معدودة نادرة... محظوظ من غنم بعضا منها. تطرب الأذان لسماع بعض الأغاني البدويّة

لامن يجينا مريضْ دلالهْ
على وخي حمّة رحل بالسّلامهْ
النّجع ملمُوم خايفْ من الـقـومْ
حمّه مغرُومْ على زرْقْ الوشامهْ
النّجعْ رصّهْ على جْبْل **ڤفصة**
على حمّه وصّه على زرق الوشامهْ

تتحرّر الأجساد في رقصات خجولة يصاحبها قرع الطّبول وأصوات المزامير في الفلاة في الجبل تعلو من هنا وهناك. وكأنّه عرس العشيرة لا عرس فرد منها. ألوان متنوّعة تُثير البهجة مثل قوس قزح... قوس قزح كانت وهي طفلة مع صويحباتها يتّفقن على أن تختار كل واحدة لونا وكانت دائما تختار الأصفر فإذا بأيّامها باهتة صفراء عليلة.

وكان لباس النسوة بدويّا بربريّا يرسم لوحة تعبّر عن تداخل نمطين اجتماعيين. حُليّ من الفضّة خاصّة. فهذا "الزّوز" وذلك "مقواس وخدّوج" وتلك "ريحانة"... آه ضاع "الخلخال" الذي ورثته عن أمها. كانت النّساء تتباهى به فهو عنوان ثراء وجمال. ذلك الأمير الألمانيّ الذي شبّهه بركاب الفرس عندما زار تونس في القرن التّاسع عشر ورأى فيه قُبحا لا يعرف قيمته في نظر أصحابه وكيف يزيد الأنثى أنوثة وحسنا.

آه يوم العرس. شعرت ببعض الفرح ونسيت لبرهة من الزّمن إبّان انشغالها بأجواء الاحتفال ما ينتظرها. وها قد حانت السّاعة. كانت عروسا حاملة لقناع الفرح. أمّا باطنها الذي تكتمه عن الجميع فلم يكن إلاّ خوفا وفزعا. هلعا من مجهول لا تعلم عنه إلاّ القليل القليل. عالم غامض. قليلا ما تتحدّث عنه النّسوة لخجل أو لجهل أو لموانع كثيرة فرضها المجتمع البدويّ الباقي

شطحات خيال البنات الصغيرات المُقبلات على الزّواج. ما تعلمه أنّه يحمل في طيّاته ألم الجسد وهيجان الرّجل. تجهل ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة وراء الجدران أو وراء ستار الخيمة.

الزّواج بالنّسبة لها تخلّص من شبح العنوسة وستر لعار محتمل وعدم إثقال لكاهل أسرتها وإنجاب لكثير من الأبناء ويا حبّذا لو كان أغلبهم ولم لا كلّهم ذكورا فذلك "يوم السّعد" وسيُقال عنها "امرأة مبخوتة" ودليل على أنوثتها وحسن اختيار الزّوج أو عائلته لها...

وضعوها في الخيمة. في المضجع الخاصّ بالعروسين. أمروها أن تنتظر العريس وأن تلبّي أوامره ولا تُغضبه. فالحشد ينتظر إثباتا لشرفها. وأسرتها على أحرّ من الجمر. العريس بدوره كان مُطالبا بالإنجاز في أسرع وقت. فلا مجال للشكّ في فُحولته فهو سيصول وسيجول وسيثبت رجولته.

كان هناك ما يسمّى ب"الوزير" أو "الحاجب". ينتظر على باب الخيمة. يسترق النّظر أحيانا مُرضيا فضوله. طالبا من العريس والعروس الإسراع لإتمام المهمّة ورفع راية الشّرف فالقوم ينتظرون بفارغ الصبر... كلاهما كان جاهلا بما سيفعله. تحرّكهما الغريزة الحيوانيّة، خاصّة هو. فعليه أن يثبت أنّه عنترة زمانه وفحل القبيلة... كانت تتمنّى أن تحلّق مثل عصفور خارج أسوار سجنه ولكنّ "الفحل" يكبّلها بشبقه. ماذا لو كان بإمكانها كسر أصفاد تطوّقها. ماذا لو دفعت الحيوان الهائج عنها... تذكّرت القرابين التي يذبحونها على عتبات "أسيادهم" و"شيوخهم" تبرّكا وطلبا للسّماح والغفران والرضى... إنّها مثل تلك الذّبيحة... الدّماء التي ستسيل منها بفضل هذا الفحل هي عنوان العفّة ودليل الشّرف المُصان. هي التي ستجعل الزغاريد تعلو ويعود الرّقص والغناء من جديد... شعرت أن الجميع يُشاهد ما يحدث بأعين شامتة فضوليّة متوحّشة متوجّسة تنتظر الانقضاض... إنّها عارية والجميع يُشاهد تفاصيل جسدها الفتيّ الذي لم يره أحد إلاّ أمّها حين تساعدها على الاغتسال وكانت تخجل منها خاصّة بعد بروز معالم الأنوثة... أمّا الآن في هذه اللّيلة القاتمة. فهي ملك مُشاع للجميع... جسد يستبيحه الكل. كلّهم يضاجعونها ليتأكّدوا من عذريّتها ومن شرفها...

ألم سحيق كأنّها تهوي في بئر مظلمة. انقضّ عليها وحالة الذّهول تلازمها وتخرسها وما عساها تقول. بكماء عاجزة عن الكلام فهو ليس بمُباح لها... المهمّ أن يُنهي مهمّته على عجل.

متى ينتهي هذا الألم؟ كأنّها تحتضر على مهل والقوم يظنّونه مانحها الحياة... ألم تُخلق لأجل هذا؟... لم يطُل عذابها كثيرا. حمل "الحاجب" رداء العفّة وعلت الزّغاريد. لا يعلمون أنّه أحدث بجسدها جرحا أليما عميقا موجعا وأدخل على نفسها ازدراء وهلعا رافقها كلّما أقبل عليها زوجها.

لم تستطع الصّراخ من هول الصّدمة. كان قويّا هائجا. كيف لهذا الحيوان أن يغدر ويخون. الشّهوة لعنها الله من شهوة. ما بالها الأنثى لا تشتهي؟ لو كانت ناقة ما كانت بمثل هذا الهيجان.

هديره القويّ جعل البعض يحضرون وينقذونها من براثنه. ولامها البعض على استسلامها وعدم صراخها. ألم يعلّموها الخنوع والطّاعة؟... وقد ترك الجمل في اليد جرحا غائرا... تأمّلته وتنهّدت "لو صرختُ وقاومتُ ذلك اليوم هل كنت نجوتُ؟

آه آه... لماذا تلاحقها الذّكريات بشعة أليمة...؟ تنظر إلى آثار الجرح وإلى يد أصبحت مشوّهة قبيحة ولكنّ الأشدّ قبحا ما علق بالقلب من سواد قاتم "جرح السّكاكين يبرا يا صبرا وتهواه الضّميدة أمّا كلمة السّو تمسي وتصبح جديده".

مال الجسد النّحيل المنهك إلى جذع الشّجرة المترامية الوارفة الظل... ارتسمت على شفتيها المتعبتين ابتسامة واهية ساخرة.

و تذكّرت كيف لاح لها الخلاص وهي المطلّقة الشّابة... و أيّ خلاص! أرمل من عشيرة أخرى... وجد فيه والدها الزّوج المناسب لمطلّقة. ماتت زوجته وتركت له ابنة صغيرة في العاشرة من عمرها وطفلا صغيرا لم يتجاوز العامين. يبحث عمّن تربّي ابنه. تخدمه وتلبّي طلباته وتكون موطئ الشّهوات الحيوانيّة العابرة ووسيلة لإنجاب الذكر. خاصّة وقد سبق لها وأنجبت ولدا. كان شرطه أن تتخلّى عن ابنها فلا مكان له. ولأنّه رجل كريم النّفس سيسمح لها بزيارته في المناسبات. ابنه اليتيم لا يجب أن يشعر بقهر اليتم بعد وفاة أمّه ولا يجب أن يجد أمامه غريما له في منزل أبيه. لم تكن تملك الخيار.

وهل لأحد أن يستمع لرأيها؟ ما عليها إلاّ الخنوع والاستسلام لمصيرها وأن تشكر ربّها الذي منّ عليها بهذا الرجل وأنعم عليها بزوج يحرّرها من كلمة مطلّقة ويأخذها إلى "جنّة" ولده.

بكت في ذلك اليوم كما لم تبك يوما. استسلمت لعبراتها. حزنها عميق. شبح الفراق يقترب منها ومن ولدها. أيّ إحساس بشع يمكن أن يخالج أمّا عليها أن تترك فلذة كبدها لتتكبّد عناء الاهتمام بابن امرأة أخرى.

والده يريد أن يعوّضه عن يتمه وعن فقدانه لأمّه ولا يعنيه أن يصبح ابنها يتيما. لايريد أن يكون لصغيرها مكان بينهم .

تذكّرت أغنية كثيرا ما سمعت جارهم "البهلول" الوحيد يترنّم بها باكيا غُربته ووحدته. فلا أحد يعرف له أهلا أو يعلم من أين أتى ومن أيّ الدّيار قد غادر وارتحل ليكون البائس المشرّد الذي يشفق عليه الجميع ويتبرّكون به. وأينما حل وجد عطفا كبيرا. كان صوته يصدح كطائر جريح محمّلا بالأسى والدّموع

سافْوا المرحول وڨعد سيدك في دارو مرجول
و اذْ راهو بهلول طامع في أولاد النّسا
سافْوا البعايرْ وڨعدْ سيدك في الأمر حايرْ
ذهب الشّواير صالح ويونس أعطوه **بالڨفا**
يا مباركة نادي على سيدك شرّد غدا
منين جيتْ وظلّيت ڨاعدْ في ساحة البيت
من لڨيت ندوّر على **خلڨتك** في الخفا

يا مباركة نادي على سيدك شرّد غدا

من سيكون يا ترى مثل "البهلول"؟ أتُراها هي غريبة في أرض ماهي بأرض أجدادها ؟ أم تراه ابنها الذي سيصبح يتيم الأبوين رغم وجودهما على قيد الحياة؟ كلاهما سيمسي غريبا دون الآخر. سيبحث عن حلقة "مباركة"، عن عطف أخ أو أخيّة. يؤنس بها وحدته . يخفّف بها غربته. سيُدير لها

القوم "القفا". ويتركونها لمصيرها الجديد وستبحث عن ابنها في حنايا الذاكرة وفي زوايا القلب الموجوع.
ستعيش بانتظار ساعة التقائه ولو طال موعدها وبعد. ولو قصُر اللّقاء وكان مثل الومضة فستنتظره. و ماذا لديها غير الانتظار والصّبر؟
علّموها أن تصبر على المرارة وما علّموها كيف تبحث عن الحلاوة.
علّموها أن تحزن وما علّموها أن الفرح موجود...
فراقها لابنها أشعرها أنّها أمّ ثكلى. فقدت صغيرها. هل كُتب عليها الشّقاء مذ ولدتها أمّها. هل لعنها الفرح وفتح الحزن أبوابه على مصراعيه محتضنا إيّاها رافضا تركها ولو لحين لتنعم بقرب ابنها؟! أليس له غيرها ليلازمه أو يزوره علّها تعانق الفرح أو الفرج ولو لبرهة تسرقها من الزمن ؟!
عل شمسا غائمة وراء سحب الأيّام ترسل بعضا من نور أو بصيصا منه يُنير عتمة السّنين والدّرب المظلم الحزين الذي رسمته لها الأقدار.
آه يا وجع الأيّام. يا حزنا يكوي القلب بناره ماذا لو تركت في النّفس بعض النّور؟!
حلّت بأرض تشبه أرض أجدادها. أحبّتها. الأرض تمنحها بعض الارتياح والسّكينة. وجدت فيها بعضا من موطنها وبعضا من نفسها المنكسرة التّائهة. غريبة بين أناس غرباء. لا يدركون أوجاع قلبها. لا يعنيهم فراقها لابنها. لم يروا فيها إلاّ زوجة الأب الدّخيلة عليهم والتي عليها الكثير من الواجبات.
منذ اليوم الأوّل وهي تسعى لإرضاء السيّد... و خاصّة ابنه المدلّل. وكان يلقّنها الدّرس يوميّا:
- إنّه وحيدي. تعلمين لما تزوّجتك.حذار ثم حذار أن يشتكي منك...
عليها أن لا تشعر ابنه باليتم وأنّه لولاه لما كانت زوجة له. لا يناديها باسمها بل باسم عشيرتها ونسبتها إليها وكأنّه يخجل من ارتباطه بها. حاله كحال كلّ بدويّ يكاد أن ينسى اسم زوجته لعدم استعماله له.
لا تعرف لماذا تلقى الظّلم أينما حلّت!. علّه النّحس يلازمها رغم ما تقدّمه من فروض الولاء والطّاعة. ورغم ذلك أملت أن تنجب ذكورا يبعثون معنى جديدا لحياتها.

مازالت صغيرة وأمّها قد أنجبت ذكورا مات العديد منهم وعاش ثلاثة. وهذا الأمر كما علمت يُعدّ في مجتمعها وراثيّا. فطمأنت نفسها بأنّها ستسير على منوال أمّها ولن يختلف الرّحمان عن بعضهما.

كانت هذه الأحلام تراودها كثيرا وتخفّف عنها قسوة الزّوج وقسوة أختيه و"عفرتة" ابنه وشكوى ابنته المتواصلة وكُره نساء العشيرة لها. كم شكوها إلى زوجها دون ذنب مُرتكب. فذاقت مرارة القول والشّتم اللاّذع والضّرب المبرح. وكتمت ذلك في قلبها وما حدّثت به أحدا. وإن زارت عائلتها وكانت زياراتها موسميّة قليلة وعلى عجل فكانت تشدو بفضائله وتبعث الاطمئنان والرّضا في النّفوس فما يهمّهم ليس الواقع بل ما يرغبون في سماعه. فتشكر أمّها ربّها وتحمده ليلا نهارا لأنّه عوّض ابنتها عن طلاقها وعن بُعدها عن ولدها... وهل لها أن تشكو؟. وإن شكت فهل لها أن تُطلّق ثانية. وإن لم تُطلّق فسيتفاقم العقاب والعتاب لأنّها لم تحفظ أسرار بيتها وحدّثت بها القاصي والدّاني.

كتمت عذابها ومعاناتها ولعلّها أحبّت أحزانها فربّما رحلت عنها كما يرحل كل حبيب.

ولاح في الأفق شعاع أمل بصيص نور في كهف طويل مظلم.

ربّاه هل آن الأوان لتنجب الولد... الذّكر... وتفارق أذنيها الجملة اليوميّة "إنّه ابني الوحيد". جملة كادت تصيبها بالصّمم. تخز سمعها ليلا نهارا. ولولا استسلامهم للنّوم باكرا كعادة كلّ البدو لأعادها على مسمعها من الشّفق إلى الغسق إلى العتمة... إلى أن يأتي السّحر عندما تقوم لتعجن الدّقيق ثمّ الفجر عندما ينطلق كلّ إلى أداء واجباته اليوميّة... و حلمت وماذا تملك إلاّ أن تحلم.

ومرّت التّسعة أشهر دون كلل أو ملل. بل شعرت أنّ نشاطها قد زاد. و أنجبت أنثى. فرحت بها رغم خيبة الأمل. ستكون الأنيس والرّفيق في هذا العالم الموحش. ستؤنس وحدتها. وسوف تساعدها عندما يشتدّ عودها وسوف تحمل عنها بعض الأعباء التي تُثقل كاهلها وماذا ينتظر الأنثى في عالم البدو غير ذلك.

كان الصّوت الملعون يصرخ هنا وهناك. وكان وجودها مثيرا لوحشيّته وجبروته في كلّ حين. ترافقه عصاه التي يهشّ بها غنمه و"يؤدّب" بها "بيّة" زوجته. كلّهم "حيوانات" بالنّسبة له وطوع بنانه وإلا فالويل والثّبور. عليهنّ المشي على الصّراط الذي رسمه لهن. وخلفه ابنه "البشير". يظنّ أنّه يعلّمه كيف تكون "الرّجولة" و"القوّة" على أصولها. كآبة جاثمة على العمر. مرارة تغمر النّفس. سواد حالك لا يفارق الأيّام متواصل رتيب. أيّام متشابهة لعينة عنوان واحد يجمعها الظّلم المتواصل. تاهت في غياهب الزّمن الثّقيل. وطفلتها صغيرة حالمة ترنو إلى فجر مضيء. إلى أمل قد يلوح من بعيد بنقاء وبراءة... و "بيّة" تتطلّع إلى "فارس" إلى ولد يحميها من أشواك واقعها الحزين. يذود عنها وعن ابنتها.يدفع عنها البلاء. ولد، شابّ، رجل. حلمت بكل مراحل حياته. سيكون الجسر المتين الممتدّ بين ضفّتين عتمة ونور. سواد وبياض... إنجاب الذكر بالنّسبة لها حلم خلاص. لو قدم سيكون سندها. سوف يحميها من غدر الزّمان وخاصّة من غدر بني الإنسان فهو أشدّ مضاضة.

و تمرّ الأيّام وتنقضي على نفس الوتيرة. وابنها بعيد عنها يقضي سنوات طفولته بين حلاوة ومرارة. بين قهر اليتم والرّغبة في رسم درب حياته رغم صغر سنّه. كان يعي منذ فارقته أمّه أنّه مسؤول عن نفسه وعن اختيار سبيل النّجاح. أيقن أن عليه الاعتماد على نفسه لا غير.

كان أوفر حظّا منها. فالحياة لم تكن بمثل قسوتها معها.فقد وجد بعض الدّفء والعطف ممّن حوله. أمّا هي فلا يكاد يمرّ اليوم إلا والعصا اللّعينة تاركة آثارها على جسدها المنهك من لعنات القدر المشؤوم. تحرقها كلماته اللّعينة وسخريّة أختيه كخناجر مسمومة أو فؤوس مسلّطة على رقبتها.

وتتواصل سلسلة العذاب. كل سنتين تنجب بنتا وكل لحظة يعايرنها بإنجاب البنات وبأنّها لن تجني مع الأيّام إلا عارهنّ وربما أمسين عوانس فيزدن من أعباء الأب وهو في غنى عن ذلك. يريد أن يكرّس حياته لوحيده ... هي نفسها كلّما اشتدّ غضبها وألمها وعجزت عن الكتمان قالت ثائرة على نفسها "تلك حال من تنجب البنات.همّهن سيتواصل معي حتّى الممات."

ابنة زوجها "هناء" تزوّجت صغيرة في السّادسة عشر من عمرها.

لم تزعج إحداهما الأخرى إلاّ نادرا رغم النّفور الخفيّ بينهما. الابنة لم تجد فيها البديل عن أمّها ولا عوضا عن يتمها فما نادتها إلاّ "زوجة أبي". و"بيّة" رأت فيها عبئا ثقيلا يزيد من أعبائها. وربّما كراهيّة مدفُونة تنتظر أن تبعث لتزيد من شقائها خاصّة وقد أصبح لديها ستّ بنات لا هدف لهنّ ولا قيمة لحيواتهنّ إلاّ خدمة هذا "الفحل" الذي يتباهى بذكورته. وما عليهنّ إلا تلبية أوامره مهما بدا فيها من تسلّط وضيْم.

من حقّه أن يدرس. ترافقه أخته "هناء" عندما كان في السّنوات الأولى لتؤنسه وتخفّف عنه قفر الطريق ووحشته وتحمل له محفظته. تنتظره عند باب المدرسة إلى أن يتمّ تعلّمه. ولا أحد فكّر أن تتعلّم مثله. و عندما نصحهم مدير المدرسة بأن تدخل معه القسم غضب الأب وقرّر أن يرافقه بنفسه. " أيّ عار يريد هذا المدير إلحاقه بهم ؟!"

من حقّه أن يأكل متى شاء وطعامه جاهز دائما مهما كانت الظّروف. ليس مهمّا إن جعن. المهمّ أن لا يشعر هو بأيّ غياب للأكل متى رغب فيه. من حقّه أن يضرب فذلك دليل "رجولة". حقوقه لا حصر لها. أمّا هنّ فمن واجبهنّ الرّضوخ والاستسلام وشكر الله على نعمة أخ جادت به السّماء ليحفظ ماء الوجه ويستر وجوده بينهنّ عار إنجاب الأناثي. الخطأ مُباح له بل ودليل فحولة وشجاعة. منذ نعومة أظافره علّموه أنّه سيّد ومن حوله خُلقوا لأجل إرضائه. أشعروه أنّه محور الكون. أنّه مصدر سعادة وفخر لأبيه ولأخواته. وحفظ هو الدّرس جيّدا وطبّقه بحذافيره في مختلف مراحل حياته ولم يزلزل العلم الذي اكتسبه ولا المعارف التي تزوّد بها هذه القناعة التي حفرها الآخرون فيه. و غلب الطّبع التّطبّع كما يُقال.

ساعات الفرح قليلة ونادرا ما ترتسم على وجوههنّ الابتسامة إلاّ إذا غاب الأب وابنه. كانت ألعابهنّ بسيطة مستمدّة من عالمهنّ "عروسة الشلاليق" لعبتهنّ المفضّلة إذ يرسمن أحلامهنّ في هذه اللّعبة ويحلمن بغد أفضل بحياة مثل الحياة. تشبه تلك التي تعيشها ابنة العمدة أو التي تعيشها ابنة احد أعمامهم في المدينة. تشبه حياة بطلات الأساطير التي كانت ترويها لهنّ أمّهنّ في حالات الهدوء وفي ليالي غياب الأب عندما يزور أحد أقاربه في

المدينة أو في إحدى رحلات الرّعي... فيحلمن... بغد أفضل.كنّ أفضل حالا منها. يطمحن إلى قادم أجمل أو فيه ولو بعض الجمال وبعض البلسم.
أنجبت ابنتها الكبرى بعد الاستقلال بثلاث سنوات. وكانت الدّولة تشجّع تعليم الفتيات. وانتشرت المدارس في كثير من الأرياف والقُرى وتغيّر عالم البادية تدريجيّا وحلّت منازل من الحجر محل الخيام. وأصبح هناك إقبال كبير على طلب العلم. فيتباهى المتعلّم بشهادته وبإتقانه القراءة والكتابة ولو بضعة أسطر. ورغبت "بيّة" كثيرا أن تسجّل ابنتها بالمدرسة وإن كانت بعيدة. ولكنّ الأب رفض. فتوسّلت وبكت متعلّلة بأنّها ستكون خير أنيس لأخيها لابنه المدلّل. فكان الرّد ّقاطعا زاجرا. فلا سبيل لذلك فلها واجبات كثيرة أهمّ من الدّراسة عليها أن تنجزها. "أتريدين أن نترك الغنم دون راع يا امرأة؟ ثمّ ليست أفضل من أختها "هناء". حاولت مع الابنة الثّانية دون يأس فالمدرسة بالنّسبة لها حلم جميل فباءت محاولاتها بالفشل رغم دموعها "أرجوك ولو واحدة منهنّ. سترافق "البشير". سأقوم بكل الأعمال عوضا عنها. لن تشعر بغيابها..."
فيقاطعها مهدّدا متوعّدا بالعقاب إن تجرّأت على الحديث مرّة أخرى في نفس الموضوع.بل إنّه يهزأ منها " ألا يكفيك إنجاب البنات! تريدين دفعهم نحو التسيّب والعُهر". فتبكي في صمت وهل لها أن تجادل أكثر ممّا فعلت. دائما يذكّرها أنّها دونا عن بقيّة النسوة "ناقصة" "نحس" نعوت كثيرة وبشعة. ليست مثل زوجة أخيه "ولاّدة الذّكور. خمسة رجال. مصدر للفخر وللتّباهي لا للحشمة وللعار."
"النّعوشة" أيضا كان لها من مصائبها نصيب. حملُها الرّابع توّج بالحلم المنشود وبالذكر المطلوب. كانت فرحتها لا تُوصف. كادت أن تنسى كلّ ما مرّ بها من ألم ومن شتيمة.

شعرت أن أبواب السّماء قد فُتحت أخيرا ورأفت الدنيا بحالها وتذكّرها الرّبّ برحمته. مرّشهران على ولادة "طاهر". وقد سمّته كذلك لتحل عليه بركات "سيدها طاهر". الرّجل الصّالح الذي تنبّأ لها بعد أن طعمت من "زردته" أنّها ستلد الذكر. المهمّ أن تسمّيه على اسمه وتزور "سيدي تليل" بعد الولادة لتقديم الخروف المطلوب وفعلت ما أمرها به وكان

زوجها كريما فاق جوده ما كانت تنتظر. وأصبح يحسن معاملتها. وارتاح جسدها أخيرا من الضّرب والإهانة فرغم حملها لم تسلم منه. فقد كان يخشى أن تنجب البنت الرّابعة. فيصبّ جام غضبه على جسدها النّحيل دون سبب. لعلّه يريد وأد المولودة في رحمها. وعندما هل هلال الولد. و أبصر عضوه الذكري. وتحسّسه بحبّ وفخر قال" بركاتك جدّي "حمد زريبة " حلّتعليّ". ولن يبقى "البشير" ولدي وحده. سيكون له الأخ الذي سيحمي ظهره عند الشّدائد ويشدّ أزره عند النّوائب". وطبعا ككلّ بدويّ لم يكن يجول في خاطره إلاّ ما يمكن أن يحل من خُطوب. الفرح بالنّسبة لهم ترف ربّما يُعْنى به فقط أهل المدن.

ومرّت الأيّام وكان يجب أن يُحصد محصول القمح فلا أحد غيرها يجيد ذلك ويدرك أسرار الحصاد و"المندرة". بناتها صغيرات وزوجها لم يتعوّد على القيام بالأعمال الفلاحيّة بإتقان خاصّة الشّاقّ منها ويتعلّل دائما بوجع في ظهره لا يتذكّره إلا عندما يحل موسم الحصاد. و البشير مدلّل لا شأن له بهذا الشّقاء. ربّما يساعد قليلا بإصدار الأوامر ...

تركت الرّضيع"طاهر" ومازال سواد اللّيل يغشى المكان إلا بعض نور القمر ولمعان النّجوم. و أوصت إحدى أخواته بمراقبته والحرص على راحته "إيّاك أن تغفلي عنه أو تبتعدي عنه. راقبيه جيدا. احذري العقارب واحذري أن تقربه زوجة عمّك. إنّها العقرب الكبرى . و لا تحبّ لنا الخير."

تأخّرت الأمّ. الحصاد يأخذ وقتا طويلا.كان العرق يتصبّب منها. تئوء بعملها. تتحمّل ما لا يحتمل. "المحصول جيّد. "ولدي "طاهر" وجه خير وبركة." لابدّ أن يبيعوا بعضا منه ويخزّنوا البعض الآخر. قد تكون السّنة القادمة جدباء عنوانها الجفاف والقحط فلابدّ إذن من الحيطة وأخذ الاحتياطات. الزّوج كان يحاول مدّ يد المساعدة لتعود إلى الرّضيع بسرعة. الأكيد أنّه جائع وفي حاجة إلى رعايتها. و لكنّها كانت مساعدة بسيطة. و لم تجرؤ على حثّه وعلى بذل مجهود أكبر خوفا من غضبه. بدا لها وهي منهمكة في الحصاد على ضوء القمر والنّيران التي أشعلها "البشير" أنّها سمعت نعيق بوم. صوتا مخيفا كالصّراخ. أحسّت برجفة وبألم في صدرها. وسقط المنجل

والسّنابل من يدها. فتعوّذت من الشّيطان وبسملت. و أسرعت إلى عملها ترجو إتمامه سريعا.

عادت أخيرا منهكة. أضناها الحصاد. جوع وعطش وعرق يتصبّب. كانت تفكّر في رضيعها. لابدّ أنّه جائع وعطشان. قد تكون أخته نسيت مدّه بالماء. المسكين لن يقوى على الظّمإ في هذا الحرّ. سألت عنه أخته. فأخبرتها أنّه نائم في سبات عميق. كانت تظنّه لن ينقطع عن البكاء لغيابها... حرّكته. فبدا السّكون والوحشة يخيّمان على مضجعه. وجهه شاحب. لابدّ أنّه الجوع أو العطش أو كلاهما. وضعت ثديها في فمه. فما فتحه ولا تجاوب معها. حينها تيقّنت أن شيئا ما قد حل به. وتذكّرت النّعيق الذي بلغ سمعها... إنّها "النّعوشة". أخته غفلت عنه وهي قد تمكّنت منه وأطفأت شعلة الحياة فيه... في ولدها... في "طاهر" الذي انتظرته بصبر عمرها وبلهفة أيّامها.
أخذت تستغيث وتبكي وتلطم... يُقال أن "النّعوشة" تشبه طائر البوم وتختلف عنه قليلا. لها جناحان طويلان جدّا ومنقار طويل وحادّ.صوتها مفزع ومُثير للخوف وللهلع. تعود حكايتها إلى زمن قديم بل غابر. ضاعت ملامحه وفقدت الحكاية سندها وزمنها ومكانها. ففي زمن بعيد جدا عاشت شابّة حُرمت من الإنجاب لسنوات طويلة وأجهضت عديد المرّات... وشاء القدر أن تنجب طفلا. ولدا جميلا أحبّته حبّا جمّا فهو وحيدها الذي جاء بعد طول انتظار ويأس كاد يودي بزواجها إلى الطّلاق. كبر الطّفل. وفي يوم أرادت أن تستعير غربالا من إحدى الجارات. وكانت مساكنهم أو خيامهم بعيدة عن بعضها...

فأرسلته. فتأخّر عنها. إذ بقي يلهو مع عصفور صغير ولم ينتبه إلى مرور الوقت. وهل لطفل أن يعي طول الوقت أو قصره. و كانت الأمّ تنتظره بفارغ الصّبر والخوف من أن يكون أصابه مكروه. عندما رجع وجد أمّه تنتظره بصبر قد نفذ وعلى جمر ملتهب. يتّقد الشّرر من عينيها. و في فورة غضبها أخذت تضربه بجنون. فقضى الصّغير بين يديها وأصبح جثّة هامدة. عندها عادت إلى وعيها أدركت فظاعة ما فعلته فولولت وبكت وصرخت إلى أن تحوّلت إلى هذا الطّائر. واتّجهت إلى الجبال والصّحارى

والأماكن القليلة السكّان متوعّدة بقتل الأطفال عندما يغفل عنهم أهلهم وتمتصّ أدمغتهم عبر أنوفهم.
و ظنّت "بيّة" أنّ رضيعها ضحيّة النّعوشة. كان الطّفل جثّة هامدة لا حراك فيها. باءت كل محاولاتهم لبث الحياة فيه بالفشل. كان يخيّم عليه سكون الموت.
ليتها ترفرف بعيدا لتلحق بهذا الطائر. كثيرا ما سمعت حكايات عنه وما دار بخلدها يوما أنّها ستكون إحدى ضحاياه. علا نواحها وصراخها:" آه يا نعّوشة. ألم تردّدي "نتبع الذكر لين يصيرْ يرعى بالبقرْ. و نتبع البنيّة لين تولّي صبيّه". ولدي ما رعى بقرا ولا رعى غنما. فلم عجّلت بقتله ؟! وما اشتدّ عوده ولا اكتملت فرحتي به. كنت أنتظر ابتسامته. أن يناغيني... عيل صبري وأنا أرجو قدومه. انتظرته السّنين الطّوال. فحرمتني منه. و أطفأت شعلة الحياة فيه وفيّ...آه..."

خيّم الحزن وشبح الموت على الجميع و أضحوا على يقين من موته. أشفقوا عليها. ربّما للمرّة الأولى يرون فيها امرأة مسكينة بلغ بها الانكسار أشدّه. رأوا فيها الفؤاد المكلوم. رأوا فيها طائرا جريحا مكسور الجناحين يائسا من التّحليق ينتظر ساعة احتضاره. فما كتب عليه إلاّ العجز والعذاب.
بكت معها بعض النّسوة. تحلّقن حولها في مشهد مأساويّ حُفر على جدار ذاكرتها. ثياب شُقّت. وخدود لُطمت وخُمشت. شعور نُتفت. حتّى بناتها الصغيرات شاركن في حفلة النُّواح. دعاء بالويل والثّبور. صياح ونياحة تهزّ الفلاة وندب جعل الدّماء تغطّي الوجوه المعفّرة بالتّراب...

وطبعا لا وجود لطبيب ليثبت لهم أن موته قد يكون بسبب الجوع والعطش وقلّة الغذاء أو لمرض ألمّ به. كان اعتقادهم الغيبيّ والأسطوريّ يتغلّب على أيّ تفسير آخر للموت قد يتبادر إلى الذهن.

مرّت الأيّام حالكة قاتمة و"عادت حليمة إلى عادتها القديمة" وخيّم الحزن من جديد بعد فرحة عابرة. ما زادت إلاّ من تعميق مأساتها... وتذكّر الزّوج بعد موت رضيعها نعْتها بالمشؤومة وبوجه النّحس. ولم يفكّر لبرهة أنّه لو اعتمد على نفسه وتركها تعتني بصغيرها ربّما تغيّر الحال. المرأة في ذهنه هي المذنبة دوما. و كلّ شرور الحياة تتأتّى من وجودها فيها.

لم تعد تعنيها نعوته القبيحة. فقد تعوّدت عليها وألفتها وهل يضرّ الشّاة سلخها بعد ذبحها. مصابها جعلها لامبالية بما يصدره من فحيح ولا بما يردّده على مسمعها وعلى مسمع الجميع. المهمّ عندها أن تأمن شرّه وخاصّة بناتها فأجسادهنّ لم تعد تحتمل الضّرب المتواصل ففي إحدى صولاته وجولاته كاد أن يفقأ إحدى عيني ابنتها الكبرى ويجعلها عوراء. ألا يكفيها أن اسمها "عانس" وتصبح عوراء فمن سيقبل بها زوجة. أمّا ما حدث لرضيعها وإن ترك في القلب جرحا عميقا فذاك قضاء الله ولا رادّ لقضائه.

"البشير" كان يدرس. وكان محبّا للنّجاح راغبا فيه. وقد علّمته المدرسة ما لم يعلّمه إيّاه والده "عبد الله". وأصبح يعامل أخواته أفضل من ذي قبل. وأحيانا إن طال به المقام معهم يعود إلى إساءة معاملتهنّ. فالأب كان يحثّه على ضرورة إخضاعهنّ والسّيطرة عليهنّ حتّى لا يحدن عن" الطّريق المستقيم وعن درب الولاء والطّاعة" حسب رأيه. و كيف لا يطعنه وهو الأخ الوحيد إنّها ذكريات موغلة في الزّمن. ما الذي يجعلها تتذكّرها هذا الصّباح. لم يعد لها سواها وإن كانت ذميمة مهيّجة للأحزان. شعرت أن حياتها مثل المسلسلات التركيّة التي تتسلّى بها في وحدتها الليليّة.كلّها مآس. التّسلية قديما بالاستماع إلى خرافات العجائز وتبادل الأخبار والإنصات إلى الرّاديو واجتماع العائلة كان أفضل وأحبّ إلى النّفس. وليس بمثل هذا الجفاف والقطيعة.

عادت إلى واقعها. إلى حاضرها. بأيّ مكان ستحل بعد أن باع "البشير" هذه الأرض؟! ألا يعرف أنّه يبيع عمرها؟! ما فكّرت يوما أنّه وبعد كل ما فعلته لأجله سيكون هذا عقابها. ما انتظرت جزاء منه ولم تتوقّع أيضا نكرانا للجميل. يدّعي أنّه يحتاج المال من أجل عيادة لابنته التي تخرّجت طبيبة. في البداية قال لها" لقد كبرتُ ولم تعد لي قدرة على الانشغال بالأرض. زادت أعبائي. وآن لك أنت أيضا أن ترتاحي. ستسكنين في منزلي في المدينة".

كان مراوغا كعادته. لا يفكّر إلا في نفسه. عن أيّ راحة يتحدّث؟! ألم يدرك بعد كلّ هذه السّنين أن حياتها هي هذه الأرض وأن كل شجرة فيها وكل ذرة تراب لها معها ذكرى ولها معها حكاية؟ حلّت بهذه الأرض شابّة صغيرة ولم تكن فيها من الأنشطة الفلاحيّة إلاّ الرّعي وزراعة القمح والشعير. و بفضل

تفانيها وعملها الدّؤوب أصبحت جنّة على وجه الأرض. أشجار مثمرة لوز وزيتون وفستق. والمياه جارية هنا وهناك. وكل موسم فلاحيّ يجني الكثير من الأموال. و لم تكن تعنيها تلك الأموال. ما يعنيها وجودها بهذا المكان وما يمنحه إيّاها من مشاعر ايجابيّة. زواج بناتها الواحدة تلو الأخرى وذهابهنّ عنها وفراقهنّ لها لم يكن مؤلما كاستعدادها لمفارقة الأرض التي حضنتها زمنا ليس بالقصير. وكان بينهما أخذ وعطاء.

انطلقت نحو منزلها الصّغير وسط الأشجار. إنّه قصرها وهي ملكته. لماذا يحرمها من مملكتها. هنا ملاذها الوحيد. هنا عشقها الكبير. كانت تتمنّى أن تقضي ما بقي من العمر فيه. "ربّاه ما عساي أفعل ؟!" لم يكن يعنيها أن تمشي حافية. ليس هناك أجمل من ملامسة التّراب شتاء أو صيفا يمنحك الدّفء إن طلبته والبرودة إن احتجتها. يمنحك أكثر من ذلك الإحساس بأنّك جزء منه. كثيرا ما ردّدت أنّها من التّراب خُلقت وإليه ستعود ورجت من الله وتذرّعت له أن تكون عودتها من هذا المكان.

وخزتها بعض أشواك نبتة "الكداد"(القتاد). فما أعارتها اهتماما ولكنّ إحدى الوخزات كانت أكثر إيلاما. أتراها لدغة عقرب؟ كانت قد وصلت أمام منزلها فاتّكأت على الجدار وتفرّست في مكان الوخز. من حسن حظّها أنّها ليست سوى شوكة مغروزة في قدمها. سحبتها ببطء. ظهرت بعض الدّماء. كان ذلك مؤلما لها.كتمت أنينها ولم تنبس ببنت شفة. ونزلت بعض العبرات الصّامتة من عينيها غزيرة حارقة. ما قيمة جروح الجسد أمام جروح النفس. تنهّدت بصوت مسموع موجوع. و تذكّرت أن للعقرب معها أيضا حكاية. مأساة لا تُنسى. ضراوة الحاضر وشراسته لا تنسيها نوائب الماضي وتلك كانت إحدى هذه النّوائب.

حل صيف**1979** وكان صيفا لا ككل الأصياف. ففي شهر جوان تحصّلت ابنتها "الجازية" على دفتر الأعداد في سنتها الأولى بالمدرسة وكان الأب قد سمح أخيرا بأن تدرس الابنة السّادسة. خاصّة وأن "البشير" لم يرفض ذلك وعديد الفتيات في الأرياف والقرى يُقبلن على الدّراسة. كانت متفوّقة. ظهرت عليها علامات النّبوغ منذ خطت خطواتها الأولى في المدرسة. وكان معلّمها يُثني عليها ويشجّعها خاصّة وأنّه يعلم أنّها الوحيدة في أخواتها

التي قبل "عبد الله" أن تدرس. و كثيرا ما ردّد أمام رفاقها " أنت ذكيّة وأنا فخور بك". و قد سمّتها أمّها "الجازية" تأثرا بحكايات الجازية الهلاليّة وبما يُروى عنها من أساطير. كانت "بيّة" لا تمل من القول "ربّما لم يمنّ الله عليّ بذكر لكنّ الجازية صنعت تاريخ الرّجال.و جازيتي لن يخفت ضوؤها مهما مرّ عليها الزّمان وستصنع ما مُنعت أخواتها من صنعه". وكانت "الجازية" طفلة جميلة المنظر. أجمل من أخواتها لطيفة المحضر. يحبّها الجميع. فصيحة القول. تُحسن الكلام. جريئة. لاتخاف قولا أو فعلا. و كانت "بيّة" ترى " أنّها عديمة المثال في الحسن والكمال وفصاحة المقال ولا يوجد مثلها في الخلق ولا في عشيرة من العشائر. إنّها الجازية ولا يمكن أن تكون إلا على هذه الصّورة".

حل "أوسّو". عادت الطّفلة من المرعى صحبة إحدى أخواتها. كانت جائعة. جسدها الصّغير والنّحيل لا يتحمّل الجوع. و قد بدأ اللّيل يرخي سدوله. طلبت منها أمّها الانتظار ريثما يجهز الطّعام. فقالت "الجازية" "إنّي متعبة جدّا. شياهكم وخرفانكم أرهقوني من الجري خلفهم.غدا لن أذهب إلى المرعى. سأتمدّد قليلا وعندما تتمّين طبخك ناديني أنا الأولى".

استلقت على الفراش منهكة جائعة صغيرة، مثل يمامة، مثل ملاك لا يرى فيما حوله إلاّ جمالا وأحلاما. وحلمها في تلك الآونة كان بسيطا. أن تملأ بطنا خاوية فالجوع يخز معدتها وخزا وأن تنتظر بضعة أيّام لتعود إلى مدرستها إلى معلّمها إلى رفاقها لتزهو بنبوغها ولتنهل من العلم الكثير ولترتاح من رعي الأغنام ومن الكرّ والفرّ في المرعى. إنّها تحب شويهاتها ولكنّها ترهقها كثيرا خاصّة عندما تشرد هنا وهناك أثناء رحلة الرّعي. تريد لها أمّها أن تصبح أفضل حالا من أخواتها، متعلّمة، وهي تطمح إلى إدخال الفرح إلى نفسها المتعبة. رغم صغر سنّها إلاّ أنّها تعي جيدا أنّ أمّها عانت وتعاني الكثير. وعدها والدها أن يشتري لها ثوبا جميلا فيه الكثير من الأزهار "بنوار" كما كانت تسمّيه "بيّة". وربما سمح لها بمرافقته إلى المدينة التي تبدو لها حلما جميلا. ربّما سيشتري لها الكثير من الحلوى. وحتّى إن اشترى لها القليل منها. فستخبّئ بعض القطع لصديقتها "سعيدة".

لطالما كانت كريمة معها وأحضرت لها بعض الفاكهة أو البسكويت. ليست بأكرم منها. إنّها حفيدة "محمّد بن أحمد" وما أدراك. الجميع يعلم أنّ أمّها سليلة الجود والكرم. و"الجازية" تريد أن تنسج على منوال جدّها. "البشير" وعدها بحقيبة مدرسيّة جديدة مثل حقائب بنات المدينة. تجتمع فيها ألوان قوس قزح. كرهت الألوان القاتمة التي تجثم على حياتهم. كلّما لمحته في السّماء ودّت لو تطير وتمسك بالأزرق لتلوّن به جبّة أبيها. أمّا الأحمر فلثوب أمّها والأخضر لأثواب أخواتها والبرتقاليّ لصديقتها. والبنفسجيّ الجميل لها وحدها. أمّا الأصفر فتكرهه. لاتعلم لماذا؟ كرهها له عجيب. ليته لا يكون موجودا لا في قوس قزح ولا في حقيبتها الجديدة. ابتسمت وقد أخذ النّعاس منها مأخذا. شعرت أنّها تصارع النّوم وتصارع الجوع. كادت أن تستسلم لنوم عميق لولا وخزة أليمة في فخذها. صرخت صرخة مدويّة. فأسرع الجميع إليها وأحضر والدها المصباح. كانت تتقيّأ. وتكلّمت إحدى أخواتها بهلع "يا إلاهي إنّها عقرب كبيرة. لم نتفقّد الفراش. يا ربّي لطفك. إنّه "أوسّو". ولا أحد ينجو من لدغتها".

حملوها إلى المستشفى في المدينة بعد عناء ورحلة بحث مضنية عن عربة يجرّها حمار ثم بعد أن قطعوا ثلث المسافة تكرّم أحدهم وقام بإيصالهم إلى المستشفى بسيّارته وكانت "الجازية" تتألّم وتسأل "بيّة": "هل فعلا سأموت؟" والأمّ تحاول طمأنتها وتبكي بصمت. قد تكون كرهت إنجابها للبنات ولكنّها ما كرهت بناتها. ولا تمنّت فقدان إحداهنّ. فما بالك وهي "الجازية" الأثيرة عندها. "الجازية" الجميلة التي تتوق إلى العلم وأن تصبح ذات شأن عظيم. ترنو إلى الحرّية والى كسر كلّ الأغلال التي تقيّد أمّها وأخواتها بعيني طفلة صغيرة حالمة. تصبو إلى الفضاءات الواسعة ولو كانت من الخيال. لا تشعر فيها بالتّعب والجوع والظّمإ. "آه ابنتي المسكينة كانت تتضوّر جوعا. رجعت من المرعى خاوية البطن وما وجدت طعاما. كانت تنتظر بلهفة أن يجهز..آه..إلى متى غدرك يا زمان! "نهرها زوجها: "أغلقي فمك. كفاك نواحا. ستُشفى "الجازية". لازمت المسكينة سرير صغيرتها. كانت تحلم بسرير وتطالب والدها بإحضار واحد لتنام عليه. وكانت الفتاة تصرخ وتمزّق ثيابها. منعوا عنها الماء. فكانت مرّة تضرب

أمّها بيديها المرتجفتين ومرّة تبكي متوسّلة "أرجوك شربة ماء. بضعة قطرات لا أكثر. أكاد أموت عطشا. نيران تلتهمني من الدّاخل". والممرّضة ذات الوجه العبوس المتجهّم والنّظرة الجامدة تحذرها: "الطّبيب قال الماء لا. لا تخالفي أوامره". "الجازية" كانت تقول أنّ معلّمها يصف الممرّضات بأنهنّ ملائكة الرّحمة... والأمّ عاجزة. لطالما شعرت بعجزها أمّا اليوم فتفاقم أكثر... لا تعرف ما يتوجّب عليها فعله. ومرّت السّاعات جاثمة على القلوب. والطّفلة تحتضر ولا مغيث. أتراه عجز من الطّبيب عن شفائها أم تراه إهمال منه ولامبالاة بطفلة إنقاذها لن يضيف له شيئا؟

ويبدو أن الحزن عقد مع "بيّة" ميثاقا أبديا... ماتت الصغيرة عطشى متألّمة جائعة. ما لبست ثوب الأزهار ولا حملت محفظة قوس قزح ولا لوّنت حيا تها ولا حياة غيرها. ولا أخذت الحلوى إلى صديقتها "سعيدة". ولا احتضنتها مقاعد الدّراسة من جديد. الحلم الوحيد الذي تحقّق نومها على السّرير. ولكنّه سرير الموت.

قالت إحداهنّ "انزاح همّ من همومها وتخلّصت من عبء إحدى البنات". ألا تعلم قاسية القلب عديمة الإحساس أنّها فلذة من كبدها وقطعة من كيانها. ألا تعلم أنّها "الجازية"؟

مرّت أيّام وهي تتبع القطيع علّها تجد بعض آثار فقيدتها. هنا لعبت وهنا اصطادت عصافير ونصبت لها الفخاخ... هناك في أعلى الشجرة كان لها عشّ وكانت تحذر أخواتها من الاقتراب منه. هنا بنت قصرا من الرّمال وقالت إنها أميرته. وهاهو قد تهاوى مثل سنوات عمرها القصيرة ... كانت "بيّة" تحمل دفتر ابنتها المدرسيّ وتحضنه عساها تجد فيه رائحة "الجازية" ونظراتها زائغة باحثة عن مفقود تائهة هنا وهناك.

كادت الأمّ الثّكلى أن تجنّ. ثيابها أصبحت عبارة عن أسمال بالية سوداء. عيناها جفّتا من البكاء وكانت أحيانا تذهب إلى البعيد لتنوح وحدها حتى لا ينهرها أحدهم ويأمرها بالصّمت. جفّت عيناها وأصبحت تتمنّى أن تحمل مآقيها بعض الدّموع التي تخفّف من جرحها الذي لن يندمل.

تذكر كيف رأت رفاقها يمرّون قريبا منها يعودون إلى المدرسة فاشتعلت نيران الفقد من جديد وزادت لوعتها.قبّلتهم واحدا واحدا. كادت أن تسألهم:

"هل رأيتم "الجازية؟" أليست معكم؟! كان يجب أن ترافقكم إلى المدرسة. كانت تنتظر العودة بفارغ الصّبر لولا عقرب أوسّو أخمدت نور الحياة فيها". قدّمت لهم قطع الحلوى وقالت بصوت متألّم: "إنّها صدقة على روح صديقتكم "الجازية". ألا تذكرونها؟. لو كانت على قيد الحياة لكانت تثب أمامكم وتتزعّمكم مثلما تزعّمت "الجازية" قبيلتها. "يأخذ منها الأطفال الحلوى فرحين بها مشفقين على الأمّ المكلومة وتواسي هي نفسها بزيارة قبر ابنتها كل جمعة. تبلّله بالماء وبدموعها. تنقل لها بعض الأخبار. تحادثها. تلومها على رحيلها المبكّر "لماذا تركت الدنيا يا بنيّة؟ لماذا زدت من عذاب أمك؟ لماذا غدرتني ورحلت؟. ما ذكرت الرّحيل يوما. لو تعلمين كم أكابد ألم فراقك".

بالأمس كانت "الجازية " هنا. الأسبوع الماضي الشّهر الماضي الصّيف الماضي منذ سنتين. منذ سنوات...وهكذا مرّت الأعوام على موت الطفلة وما زالت ذكراها عالقة بوجدان الأمّ؟. وما استطاعت نسيانها أبدا. ذاكرة تحمل الكثير. تحمل ضنك السّنين، تحمل وجعا بل أوجاعا لا متناهية.

واليوم تذكرها. في هذه اللحظة لوخز في قدمها. أكثر من أربعين سنة مرّت وكلّما ذكرتها أجهشت بالبكاء وكلّما لمحت عقربا داست عليه بقدميها بكل ما أوتيت من قوّة. وقتلتها شرّ قتل وكأنها تنتقم لابنتها شرّ انتقام.

رن هاتفها. من عساه يذكرها في هذا الوقت من النّهار وفي هذا القيظ.كان الرّنين أجمل الأصوات بالنّسبة لها فهو يخرجها من عزلتها . ويشعرها أنّها مازالت على قيد الحياة ومازال في الأحياء من يرغب في التّواصل معها. إنّها وحيدة وهذه الأيّام يزداد إحساسها بالغربة والوحدة.بل إنّه يتفاقم.

كان المتكلّم ابن أخيها يدعوها إلى حفل ختان ابنه. أخوها الأصغر "علي". أيّ صدفة عجيبة! كانت تلاحقها ذكريات "الجازية" وهاهي ذكريات أخرى مؤلمة تطفو على سطح الذاكرة. وجع الذكريات لا حدّ له. وذكرى "علي" عالقة مهما حاولت نسيانه. فقدته في نفس السّنة التي رحلت فيها عنها "الجازية" رحيلا أبديّا. لو كان حيّا لكان جدّا وكان سعيدا بحفيده الذي سُمّي على اسمه.

كان أصغر إخوتها. وكان فارسا تتطلّع إليه صبايا العشيرة. إنّه الفارس الصّنديد المتوهّج بقوّة. صاحب المروءة. منذ نما عوده واشتدّ وفرسه يرافقه أينما ذهب. يتكاملان فهو يجيد الرّكوب ويعشقه ويسبق الرّجال. يطوي ظلام اللّيل طيّا ونجمه في السّماء يتلألأ. يسابق الرّياح والأمطار وينطلق في الفلاة دون قيد. وهي تثب به لا تقبل أن يمتطيها إلاّ فارسها المغوار. كان ضرب حوافرها وصهيلها أجمل ما تعشق أذناه. تكتمل علاقة عشقه بها بالبندقيّة التي لا تفارقه. هي مجده وهي شرفه وقوّته. وهي هيبته. وهي حصنه وقلعته في البراري. يُقال "أنّ في الخيل عزّة يستطيع الإنسان أن يفهمها. إنّها تحزن ولا تبوح. وتتألّم ولا تنكسر". وهذا ما شدّه إليها. الأنفة والكبرياء. فرسه كانت بالنّسبة إليه أجمل المخلوقات الحيوانيّة. كانت عشقه اللامتناهي. وكان ميّالا إلى الانطلاق والحرّية. مُحبّا للمغامرة ولكنّ عالمه البدويّ يضيق به. فكان الملل يتسلّل أحيانا بل كثيرا إلى نفسه فيهفو إلى الانعتاق. وقد لمس فيه والده ذلك فأدرك أنّ ابنه مثل الفرس الجامح الشّارد. يريد أن يسرح ويمرح مثل الخيول بلا حدود ودونما قيود. يرنو إلى التّحليق سابحا لا أرض ولا سماء... فسعى إلى تزويجه ليحدّ من جموحه ومن "جنونه"رغم صغر سنه. كان في الثّمانية عشرة. وكانت "غزالة" أجمل بنات العشيرة فعشقها الفارس. هام بها. لم يخترها ولكنّ اختيار الأب كان صائبا بالنّسبة له. وكانت تشبه فرسه بعنفوانها بكلّ كبريائها. فشبّهها بالخيل الأصيلة. رأى فيها جمالا. في سواد عينيها. في بياضها. في جسدها... سعد بزواجه منها وذاق متعة أخرى إلى جانب متعة الفروسيّة وهام بغزالته وبفرسه. وأصبح الفارس شاعرا. كثيرا ما أنشد:

ياعيون الرّيم يا غزالتي
ياجمال البوادي
يا عنوان الجمال يا غزالتي
ما أبصرت عينيّ مثل حسنك وما أبصرت في النّساء غنجا ودلالا
حبّك في القلب سكن وتربّعا
يا عيون الرّيم يا غزالتي...

كان يحفظ بعض أغاني العشق والهوى فيردّدها لها دون حياء كعادة أهل البادية خاصّة أمام أبائهم وأمهاتهم. حدّثها عن أحلام تحلّق بعيدا. تطير نحو مجهول. لا يعلم إلى أين؟ عن عشق مثل الخيال. مثل مصادفة جميلة ما حلم بها يوما. قصّ عليها مغامرات مع فرسه وحكايات تشبه الخرافات. وصف لها انطلاقه معها في البراري... سفر في الصّحراء في جنوب البلاد. نحو "أولاد يحي" و "أولاد بويحي". سفر نحو "الهمامة" في سيدي بوزيد. سفر نحو "أولاد عيّار" في الشّمال. وصف لها جمال نساء "الفراشيش" وعيونهنّ الملوّنة وبياضهنّ النّاصع وشعورهنّ الذهبيّة. أخذت الغيرة بمجامع قلبها. أعلمها أن لم يكن للنساء في قلبه مكان. ما كان يعنيه إلاّ ركوب الخيل والعدو بها دون قيد الزّمان أو المكان. إنّه يريد أن يتخطّى كل الحدود أن يجمح. يشرد مع فرسه. تلك هي الحياة المشتهاة بالنّسبة إليه. واكتملت بغزالته. فتخجل كعادة النساء البدويّات.يسكنها الحياء. فما حلمت بأكثر من زوج. فهاهي الدّنيا تجود عليها ب"علي" فارس عاشق ما حدّثتها عنه صبايا العين ولا رفيقات الحصاد ولا أمّها التي تحلم بزواجها منذ ولدتها.ما سمعت أبوها يوما إلاّ لاعنا شاتما أمّها مهدّدا بالطّلاق والزّواج بامرأة ثانية. تاركا أثار الضّرب على جسدها المتعب. وإن دعاها بصوت أجشّ آمر خافت يتمتم. فحينها يعلم الجميع أنّ ربّ العائلة سيمارس فحولته على امرأة ذليلة قليلة الحيلة. ليس لها إلاّ أن تطيع فيضحك أبناؤها ويتألّمون لحالها رغم صغر سنّهم.

أمّا رجُلها هي فالحلم المُشتهى ما زارها في اليقظة ولا في المنام وهاهو واقعها حقيقة شهيّة فاتنة مثيرة تعيشها بجسدها وروحها. تخاف أن تتلاشى مثل السّراب كطيف بعيد يقترب منها فتحضنه ليبقى، ليزداد التصاقا بها، لينصهر فيها، ليسكن بين جوانحها خوف أن يحلّق بعيدا عنها.
ويعيشها هو بشبابه، بأحلامه، بحبّه للمغامرة. وكانت الحياة عند "علي" لذة الفروسية ولذة عشقه لزوجته "غزالة".
كان لمتعتيه حدود وللذتيه نهاية. وانشغلت عنه "غزالة" بالولد الذي أنجبته. وبمشاغل الحياة البدويّة... و مات فرسه. وحزن لأجلها حزنا كاد يهوي به إلى الشّقاء والفناء واليأس. ولأنه شاب. دفعه شبابه وحبّه للمغامرة للبحث

عن مجهول عن سفر طويل. عن مواساة ."المغرب" بلد سمع كثيرا عنه، عن سحره وعن أسراره.

صارح أمه: "آه يا "دادة". إنّي أشكو غربة في هذا المكان الذي أصبحت تضيق به نفسي. وإن كانت الشّكوى تداوي جروح قلبي وتقضي على همّي. فإنّي أبثّك إيّاها. سقاني موت فرسي أسى وعلقما. لكنّ صبري هو قوّتي وصبري نفذ... أريد أن أعجّل بالسّفر علّني أستعيد بهجتي وحبّي للحياة."

بكت المسكينة فقد عزم على الرّحيل إلى "المغرب" رفقة أحد أترابه في سيارته فما باليد حيلة. لم تنفع توسّلات "غزالة" ودموعها وما لان قلبه "سأعود. لن تكون سفرة طويلة. شهر. ربّما شهران وأعود حاملا إليك ما تشتهين. القفطان المغربي وأحمر الشّفاه الذي يدوم أربع وعشرين ساعة. ستكونين مثل عيشة بنت السلطان وأجمل من نساء المدينة. سأعود إليك بالبخور الذي قلت أنّه يجلب الحظّ والرّزق. سأحمل معي كسوة ختان لابننا ما لبسها طفل من عشيرتنا. ستدخل البهجة من جديد إلى عشّنا. سأشتري حينها فرسا جديدا. أعدك يا عيون الرّيم. إنّي فارس. أم تراك نسيت ذلك؟! والفارس جامح، متوهّج، "خيّال"، لا يعيش دون فرسه. وأنت الآن فرسي وعشقي وإليك ستكون عودتي". ورحل. نأى عن مكان فُجع فيه وهو الشابّ الصّغير الذي لا عهد له بالخيبات. سافر تاركا في القلوب خوفا من مجهول. وبقيت النّفوس تترقّب عودة الغائب. شرد الفارس في أرض غير أرضه. وما كان لهم إلاّ أن ينتظروا. ومرّت الأيّام ثقيلة رتيبة مملّة تحمل الكثير من الهواجس والخوف من غد غامض.

وكانت "بيّة" في منزل زوجها تكابد الشّقاء والشّوق. شقاء الحياة وظُلم من حولها من ناحية وشوقها لعائلتها خاصّة "علي" من ناحية أخرى. طال سفره. مرّ الشّهران فلا أقبل الغائب البعيد ولا بلغهم أيّ خبر عنه. وتحوّل الترقّب إلى خوف ثمّ إلى تشاؤم.

وباتوا على يقين أن مكروها قد أصاب "علي". هل تراه أفل نجمه وخبا سطوعه بين أقرانه ولن يلوح ضوؤه من جديد. لم يكن باليد حيلة إلاّ الصّبر والانتظار...

عندما حضر "العيد" أخوها لاصطحابها. كان صامتا متجهّما. يخيّم عليه شبح الموت. لم ينبس بكلمة وربّما كان عجزا منه عن البوح وإعلان النّبأ المشؤوم. أمرها فقط بصوت هامس أن تصحبه إلى منزل أهلها. حينها أدركت أنّ مصابا عظيما وخطبا أليما قد حل بهم. لقد رحل الفارس المغوار. الشابّ الصّغير. العريس الذي لم يشبع من الحياة ولكنّها شبعت منه واكتفت. ليس في حاجة للكلام ولا أن يعلمها فالكلمات بالنّسبة لها لا قيمة لها أمام هول ما حدث. الفجيعة كانت منتظرة. وما زاد من حرقتهم أنّه احترق في السّيّارة التي تقلّه ولم يبق منه إلاّ أشلاء ورماد. تفحّم في أرض غريبة. بين أُناس غرباء. لم يجد أحدا يحنو عليه ويطفئ النّيران التي حاصرته بسبب انقلاب السّيّارة. لهيبها أخمد لهيب جموحه وأسكت شجاعته وعشقه للمغامرة وما ساقه إلى مصيره المحتوم إلاّ هذا العشق. تنهّدت " "علي" علا نجمك وسطع وهاهو يخبو. لم يبق من توهّجك إلاّ الرّماد. وابن كُتب عليه أن لا يبصر له أبا وزوجة أرملة ما رضيت بعدك زوجا".

وجع الذكريات لا حدّ له. ذكريات أليمة قاسية حتّى في تذكّرها. وخزة شوكة جعلتها تستعيد مأساة "الجازية" ومأساة "علي". ما مرّ عليها لم يكن هيّنا ولا سبيل لنسيانه. أحيانا تتساءل كيف حلّت بها كل هذه الخطوب ومازالت على قيد الحياة؟ كيف عاشت كل هذا العمر وهي مثقلة بكلّ هذا الوجع وبحنين إلى أموات رحلوا منذ زمن وتركوا في القلب لوعة وشوقا كبيرا. "إنّه القدر الذي لا مفرّ منه". "ولّي مكتوب على الجبين لازم تشوفو العين". هذا ما كانت تردّده علنا وسرّا علّها تخفّف عنها ولو قليلا من وطأة المصاب ومن حرقة الأيّام.

نظرت إلى بقايا الجمرات تحت برّاد الشّاي. خبا لهيبها وتحوّلت إلى رماد. ترى رماد أخيها مثل هذا الذي أمامها. أم أنّه حمل روحا صارعت جحيما وحاولت أن تردّ عن شبابها سكرات الموت. "رحمك الله يا أخي. كنت مُحبّا للحياة فغدرت بك."

نزلت بعض العبرات من عينيها وحاولت أن تستنجد بكأس شاي أحمر ثقيل مرّ تخفّف به وجع رأسها. وجع لا يكاد يفارقها ليعود من جديد. الذكريات تزاحمت وجعلته ثقيلا مسكونا بآلام لا نهاية لها. لمست البرّاد فوجدت به

بعض الحرارة. ارتشفت شايها على مهل. وتمدّدت على فراشها تطلب بعض السّكينة وبعض الخلاص من هذه الذكريات. غلبها النّعاس وكأن في الكأس مسكّنا أو مهدّئا. ونامت نوما عميقا. راودها حلم أو هو كابوس. كان زوجها يحاول دفعها إلى أعماق بئر لا قرار له. وهي تحاول أن تصرخ أن تطلب النّجدة فتجد نفسها عاجزة عن الكلام. وتنظر إلى وجهه متوسّلة باكية. فإذا به "البشير" لا "عبد الله". عيناه مثل شرارة نار حمراوان. تحيط به الأفاعي من كلّ جانب. تصدر فحيحا مرعبا يهزّ الأرجاء ويتردّد صداه في عمق البئر و ترعد السّماء منذرة بالويل والثّبور وتحاول الهرب رغبة في النّجاة. فتتعثّر وتستفيق من نومها والعرق يتصبّب من كامل جسدها. فتحمد ربها أنّه كان مجرّد كابوس. تعوّذت من الشّيطان. عليها أن تقبل فراقها لهذه الأرض. ليس باليد حيلة. وإلاّ فإنّها ستفقد صوابها. كم بقي في العمر بضعة أيّام بضعة أشهر بضعة سنوات. ليس هناك أجمل ولا أنفع من نعمة العقل. الباقي كلّه هباء... هل تصبح أسيرة الهواجس والكوابيس آخر العمر أم تراها "صليحة" زوجة "البشير" قد دفنت بعض "أسحارها" في التّراب أو بخورها الذي لا يكاد يفارقها كلّما زارتهم؟

إنّها ابنة المدينة. تزوّجها صغيرة السّن. تحصّلت على البكالوريا ثم عملت معلّمة. كانت مخطوبة لبائع خضر فأمّها عازمة على تزويج بناتها صغيرات والجامعة لمن تريد أن يكون مصيرها العنوسة حسب رأيها. ثم ظهر "البشير" صديق لزوج أختها. كان صيدا ثمينا بالنّسبة لها ولكلّ العائلة. صحيح أنّه ابن "العربان" ولكنّه الذكر الوحيد عند أبيه. طبيب تحلم به كثير من الفتيات. ليس مهمّا أنّه خطب ابنة عمه. بعض الحيل ويكون طوع أمرها. وكان لها ما خطّطت له. ساعدها في ذلك جمالها وكان هو ممّن يشعرون أنّهم في حاجة إلى بنات المدن وأنّه بزواجه منها يسدّ نقصا.

التقيا. هي "السّاحرة" التي بلغت من العلم القليل. ظاهرها رفعة وأخلاق. ابنة الحسب والنّسب حسب مقاييس أمّها والباطن انزلاق في ميدان السّحر والشّعوذة فمن العرّافة "علجيّة" إلى العرّافة المغربية "فتيحة". والقائمة طويلة. لم يعلق بذاكرة "بيّة" إلاّ هذان الاسمان. لا تملّ ولا تضجر. هو سبيلها لتحقيق أحلامها ومطامحها. و"البشير" كان أملا لابدّ من الوصول

إليه. أيستعصي عليها البدويّ الغافل؟ ظنّت أنها فطنة تسير في الدّرب الصّحيح في زمن خُلق لأجلها. هكذا علّمتها أمّها. ولم يُجْد تعليمها الأطفال نفعا ولا غيّر نظرتها إلى الحياة وطُرق وصولها لمبتغياتها. وكان هو قد بلغ من الاستبداد والجشع الكثير. نجح في دروب الحياة ومسالكها الوعرة بين حلال وحرام. كان مُكدّا في عمله. حريصا على النّجاح كطبيب وعلى الانتفاع من الأرض قدر المستطاع. فكان يقسّم وقته وحياته بين عملين مختلفين. المهمّ أنّهما يوفّران له المال المطلوب.

زوجة أبيه لم تر فيه إلاّ حاميا للعرض ولبناتها اليتيمات. المهمّ أن يكون هناك رجل. سيّان عندها إن كان طيّبا أو سيّئا. لابدّ أن يكون هناك رجل وإلاّ وُضعن في قفص اتّهام من قبل العيون والأذان والألسنة المتربّصة بهنّ. والتي تتحيّن فرصة اصطيادهنّ والتّنكيل بعرضهنّ. ليس مهمّا أن يظلمهنّ أو يأخذ أرضهنّ. المهمّ أن يعلم الجميع أنّه سيّد الدّار وأن لبناتها رجل يحميهنّ. وإن كان يحمل في داخله أطماعا لا متناهية وعبوديّة للمال تكبر معه. وكان لزوجته سادنا يحرس معبدها معبد السّاحرة. كلّ ما في الحياة من عثرات أو أمراض ولو بسيطة قد تواجهها فهي لابدّ أن تكون بسبب سحر إحداهنّ وحسدها لها. كثيرا ما تشدّقت وتباهت بصلاتها وبأدائها لها في موعدها. وضمنت لكل من لا تصلّي مكانا حقيرا في جهنّم و"بئس المصير. أيُعقل أنّها لا تصلّي!" كثيرا ما وصفت في المجالس عطاياها وعطايا زوجها "، "البشير" يجود على القريب وعلى البعيد. لا أحد مثله في كرمه. لا أحد رعى أخواته وزوجة أبيه كما فعل هو. حرم نفسه من الكثير ليوفّر لهنّ ما يحتجنه دون مقابل ". ثم تختم بحقد وكراهية "ناكرات للجميل". وتواصل الحديث شاكية باكية من عائلة زوجها معدّدة مساوئ كل واحدة منهنّ وكلّها ثقة أنّه مادامت "علجيّة" على قيد الحياة فلا خوف منهنّ ومن أيّ أحد وخاصّة من تريد بها السّوء. السّلاح العجيب عند "علجيّة" وفي بخورها. بخورها ذي الرّائحة النّتنة والمكوّنات العجيبة.

أمّا "بيّة" فكانت تستنجد بجدّها "سيدي بوعلي" وبكل من يزور ذاكرتها من الأولياء الصّالحين. هم من سيدفعون عنها الأذى وهم من سخّرهم الله لحمايتها هي وبناتها وابنها البعيد.

كلّما قيل لها "لماذا تستسلمين لغطرسة هذه المرأة وتدلّلينها كثيرا؟" قالت:" إنّها زوجة البشير وعليّ أن أصبر عليها احتراما له". لامتها إحدى أخواتها: "يا أخيّة حتّى متى صبرك على هذا الضّيم ؟!" أجابتها: "إلى أن يفعل الله ما يشاء. ما باليد حيلة. عليّ أن أصبر وأكتم ما بنفسي. حقّي عند ربّ كريم."
"الصّبر" كلمة حاضرة في كلّ ما تتفوّه به. لا تكاد تغيب كالملح في الطعام. تُسمعها لنفسها وللآخرين. إنّه الدّرس الذي حفظته عن ظهر قلب وتعلّمته من الصّبا. ماذا لديها غيره. إنّه مفتاح الفرج بالنّسبة إليها. تواسي به نفسها كل حين. كلّما تذمّرت إحدى بناتها أو ثارت ولو قليلا خاطبتها: "يا بنيّة لا نملك إلاّ الصّبر. اصبري. اصبري وارحمي أمّك فليس لها غيره". وإحساس بالعجز وبالظّلم ينتابها ويزداد كلّما شكت إحدى بناتها أو لمحت في المآقي بعض العبرات المكتومة حينها تُسارع لتخفي دموعها وشقاءها كي لا تزيد من آلامهنّ وكلّما تذكّرت أنّهنّ تزوّجن تفرح وتشعر بالارتياح وبحمل ثقيل قد انزاح. قد لا تكون زيجات مثاليّة ولكنّها الحل الأمثل والأجدى. عندما كان "البشير" يضرب إحداهنّ وهنّ صغيرات أو يفتكّ منهنّ طعاما تواسيها قائلة: "كل الإخوة يفعلون ذلك. إنّه رجل وعليك أن تصبري". كان يحمل صفة "الرّجولة" باكرا دون إدراك لمعناها إلا أنّه ذكر. في إحدى لحظات الصّفو النّادرة بينها وبين زوجها تجرّأت وسألته: " لماذا سمّيته "البشير؟" أجابها بفخر واعتزاز: "يا جاهلة. أما سمعت بالبشير بن سديرة؟! رجل ولا كلّ الرّجال. مناضل ومجاهد في سبيل تحرير تونس من الاستعمار الفرنسيّ. رجل صنديد مقدام. لا يهاب أحدا. يسكن المغاور في الجبال النّائية. يقطع الطّريق على الجندرمة ويقدّم العون لكلّ محتاج. الموت يلاحقه في كل المسارب وفي كل المسالك. له أعداء ولكنّه لا يخاف الموت الذي يتربّص به في كل حين. أحيانا يخطر ببالي أنّ الموت هو الذي يخشى الاقتراب منه. رجل ولا كلّ الرّجال مثل "الأزهر الشرايطي" وغيرهما. ولذلك سمّيت وحيدي على اسمه". وتركها مبتعدا مزهوّا بابنه. فخاطبت نفسها "ولكنّ بشيرك لا يشبه هذا البشير في شيء". التفت إليها صارخا والشّرر يتطاير من عينيه "ماذا قلت يا امرأة؟" ارتعدت وهمهمت: "لا شيء. قلت حفظ الله وحيدك وبشيرك."

إنّها لا تكره "البشير". ربّما لا أحد أحبّه مثلها. لقد تربّى على يديها. وجدته طفلا صغيرا يتيما كثير البكاء. نحيلا. أشفقت عليه. بل إنّها وجدت فيه خير عوض عن ابنها البعيد عنها. قد تكون وجدت من أخته "هناء" نفورا وتوجّسا فلا امرأة يمكن لها أن تأخذ مكان أمّها. أمّها التي ماتت وهي تلد فلا عاشت الأمّ ولا عاش الطّفل. مأساة المرأة البدويّة الإنجاب المتواصل والموت يتربّص بالأمّ وبالرّضيع في كلّ وقت. تركتها تواجه اليتم لا سند لها إلاّ هذا الأخ الصّغير. عندما تزوّج والدها بعد بضعة أشهر كرهت هذه المرأة الغريبة "بيّة". إنّها حقّا غريبة عن عشيرتهم وعن نفسها وعن روحها. روح طفلة ذاقت اليتم قبل الأوان. وحاولت "بيّة" أن تتقرّب منها أن تدنو من حزنها ووجعها لفراق أمّها علّها تخفّف عنها بعض الأسى. ولكنّ الابنة كانت صادّة لها تشعرها أنّها مجرّد زوجة أب ونساء العشيرة قُمن بالواجب على أكمل وجه.

منذ علمن باختيار الأب "عبد الله" لامرأة من ديار أخرى أعمت الغيرة نفوسهنّ. كيف له أن يترك بنات عمّه ويأتي بغريبة بل ومطلّقة ولا تفوقهنّ جمالا بل إنّها سمراء ليس لها من الحسن إلاّ شعر ناعم طويل أسود. وتجسّد انتقامهنّ في تلقين "هناء" دروسا
تنتهي رغم مشاغلهنّ. قالت لها "تقّاحة": "إيّاك أن تطيعيها. ستجعل منك خادمة لها. ستسوّد أيّامك ولياليك وتقضي على شبابك . ستزرع الشّوك بينك وبين أبيك". "فطيمة" أعلنت بكلّ ثقة ومرارة: "آه. إنّ لي مع زوجة الأب تجربة مرّة مثل العلقم. مازال مرّ كلامها مثل الطّنين في أذني. إنّها عذاب مسلّط ولا أظنّ عذاب جهنّم أسوأ منه. ستجعلك مثل الخاتم في إصبعها جارية مطيعة لها". "جميلة" ألحّت قائلة "كيدي لها واحتالي قبل أن تكيد لك وتحتال. سأكون عونا لك. لا تدعي الغريبة تشمت فيك "إلاّ العجوز "مريم" وكانت هي أيضا قد عانت في شبابها لأنّها غريبة عن هذه الدّيار فعاتبتهنّ: "حرام عليكنّ قد تكون خير عوض لها عن أمّها رحمها الله. لا تحمّلوا البنيّة ما لا طاقة لها به. لا تبثّوا كلّ هذه السّموم في روحها البريئة".

وغادرتهنّ قبل أن يهاجمنها ويتّهمنها بالتّدخّل فيما لا يعنيها. وكانت هذه العجوز فيما بعد الوحيدة التي تجالسها "بيّة" وتشكو إليها بعضا ممّا في فؤادها وشيئا ممّا يثقل كاهلها. كانت فعلا حضنا تلجأ إليه أوقات الشدّة .
تزوّجت "هناء ولم يطل بها المقام كثيرا في منزل أبيها وسكنت بعيدا. زواجها كان البلسم الشّافي لروحين ما التقتا يوما. روح يتيمة وروح غريبة.

تمتمت: "هداها الله "صليحة". شرورها لا تنتهي. وكم من صليحة مرّت عليّ في حياتي". ثم تذكّرت أنّ "صليحة" لم تزر هذا المكان منذ أشهر طويلة فلامت نفسها: "أظنّني ظلمت المرأة هذه المرّة. لابدّ أنّه ابن أخ زوجي "عامر". إنّه يكرهني بشدّة. كثيرا ما ردّد أنّه لولا مساعدتي للبشير لما كان حال الأشجار بمثل هذا الجمال وهذا العطاء. ولا كانت الأرض بمثل هذه الخصوبة. كثيرا ما حثّ "البشير" على طردي من الأرض لأعود إلى أهلي وعشيرتي. مذ كان صغيرا والحقد يملأ قلبه يحسد البشير لأنّه أفضل منه علما وأكثر منه مالا وأوفر منه حظّا... لن يكون هناك جان سواه... ربّاه أصبحت أكلّم نفسي.هذا كلّه بفعل سحر "عامر" .

"عامر" لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد مرّ كالسّراب في ذاكرتها وبين أوجاع ذكرياتها ما يعنيها هو الأرض. عندما حلّت بها منذ أكثر من خمسين سنة ما ظنّت يوما ولا دار بخلدها أنّها ستعشقها وستصبح جزءا منها ومن وجدانها إنّها منبع الحياة بالنّسبة إليها. فيها دفنت أحزانا وفي أحضانها شكت هموما. وشعرت بدفء ما وجدته عند بني البشر. "البشير" ما همّه ذلك ولا فكّر فيه ولا أحسّ به ولا شعر بلوعتها. عندما كان في حاجة إليها وإلى ساعدها وإلى عطائها كان يقول ويردّد: "إنّها بمثابة أمّ لي. بل إنّها قدّمت لي ما لا تقدّمه أمّ لابنها". أمّا اليوم؟ فهو يُحيلها على التّقاعد كما يقول مازحا. ولكنّها لا ترغب في تقاعده. ليست موظّفة عنده إنّها صاحبة الأرض مثله بل وأكثر منه. اليوم لم يعد هذا المكان يعني له شيئا سوى مصدر للمال. زوجته ابنة المدينة لا همّ لها إلاّ أن تباع هذه الأرض لإرضاء رغباتها ولتلبية طلبات أبنائها التي لا تنتهي. هذا يريد السّفر إلى فرنسا يريد أن يدرس هناك وأن يتباهى أمام أصدقائه بقدرته الماليّة على ذلك وبثراء أبيه. وتلك تريد أن تمدّ زوجها بالمال ليمنحها السّعادة وليرضى عنها ولا يفكّر في امرأة أخرى

ولا يعاكس الفتيات. وتلك تخرّجت طبيبة ولابدّ لها من عيادة فلا رغبة لها في العمل في المستشفيات العموميّة. إنّها لعامّة النّاس للبسطاء أو للحثالة لا يهمّها. هي لا تنتمي إليهم وسيكون العمل معهم متعبا وشاقا. ألا يكفيها أقارب والدها البدو "العربان" وعمّاتها الجاهلات. لا أحد فكّر بهذه العجوز المسكينة التي أفنت عمرها هنا. ما مصيرها بعد بيع الأرض؟ تنهّدت بصوت مسموع يحمل وجعا كبيرا. إنّه يوم الذكريات. منذ الصّباح وهي تطوّح بها هنا وهناك. وتشرد بها من زمن إلى آخر كمسافر يمتطي دابّة لا تعرف وجهتها ولا الرّاكب بدوره يعرف أين المصير ولا أين سيكون حلول الرّكب. تصاريف رياح الزّمن هي وحدها التي تعلم ذلك. فما ظنّت عندما مات زوجها منذ أكثر من ثلاثين سنة أنّها ستبقى بهذا المكان وتقضي فيه كلّ هذا العمر؟

زوجها الذي كان يدمن التّدخين ويقبل عليه بشراهة لا توصف علبة خضراء لا تفارقه والطّامة الكبرى إن وجد هذه العلبة فارغة يثور ويتطاير الشّرر من عينيه ولا تجرؤ هي أو واحدة من بناتها على الاقتراب منه. "البشير" نفسه كان يخشاه عندما تنقطع عنه السّيجارة. السّيجارة بالنّسبة له رفيقة دربه ربّما تحتلّ الرّتبة الثّانية عنده بعد "البشير". لا غنى له عنها. فيها يجد العزاء أو بعضا منه لما يحيط به من قساوة الحياة.

مذ كان صبيّا يرعى الغنم وهو يقبل عليها. تعلّم ذلك من الرّعاة الأكبر منه سنّا . قالوا له: "عليك أن تكون رجلا والسّيجارة عنوان الرّجولة ". وكان في شبابه يتباهى بها. لا أحد منعها عنه أو منعه عنها فالذكر في البادية صاحب القرار وسيّد نفسه منذ طفولته. ثم أدرك خطورتها ولكنّه كان قد أدمنها وأصبحت جزءا من عالمه اليوميّ لا يمكن أن يخلو جيبه منها. وكلّما ازدادت مشاغل الحياة وحلّت بعض من نوائبها واشتدّت مصاعبها إلاّ وازدادت حاجته إليها.

تذكر جيّدا كيف بدأت تظهر عليه بعض الأعراض سُعال يستمرّ طويلا ويصبح شديدا فكان المسكين يتلوّى ويرتجف مثل ورقة في مهبّ الرّيح ويشكو بحرقة من ألم يلازمه إمّا في الصّدر أو في الكتف. لأوّل مرّة تشفق عليه. قد يكون أساء إليها قد يكون ظلمها عديد المرّات. ولكنّه زوجها وهو لا

يختلف عن أغلب رجال العشيرة. إنّه أبو بناتها ورجلهنّ وحاميهنّ وإن قسا عليها وعليهنّ. ليس مهمّا ما يصدر عنه ما يهمّها هو وجوده. "البشير" كان يعمل بعيدا. هناك في العاصمة. وكانت زياراته قليلة ولم يكن "عبد الله" يرغب في إزعاج ابنه. كان يريده قرير العين مطمئنّ البال. إنّه عريس لم يمض على زواجه إلاّ بضعة أشهر. ليس من المُجدي أن يخبره عن بعض الآلام. "غصرة وتعدّي". المهمّ أن يهنأ وحيده ويفرح وأن لا تتبرّم ابنة المدينة. في إحدى المرّات سمعها تخاطب زوجها بصوت خافت: "ألا ترى أن أهلك يتصرّفون تصرّفا همجيّا وفوضويّا مثل الرّعاة؟" كتم غيظه."أتفسّر بساطتهم وعفويّتهم بالهمجيّة والفوضى؟ "أخبر "بيّة" بالأمر ودعاها أن توصي بناتها بعدم إزعاج زوجة البشير عندما تحضر لزيارتهنّ وأن يعاملنها كملكة. إنّها زوجة وحيده مهما تفوّهت بكلام مسيء. ومهما تحسّر على عدم ارتباطه بابنة أخيه فالآن قد اختار "صليحة". وعليهم أن يستسلموا للأمر الواقع وإلاّ قد تأخذه ابنة المدينة فيُحرم من رؤية ابنه بقيّة العمر.

تتواصل آلامه ويستمرّ الوجع. ويضيق تنفّسه فلا يستطيع النّوم ولا الكلام. كانت تتمنّى لو تمنع عنه هذه السّجائر اللّعينة، هذه السّموم. ولكنّها كانت تهابه. قد تغضبه وتزيد من أزمته وعذابه وشعوره بالضّعف. فلتصمتْ ولتنتظر ما ستأتي به الأيّام القادمة. ربّما زارهم "البشير" فهو الوحيد القادر على مجادلة أبيه. وعاد الابن بعد أن أخذ المرض من أبيه مأخذا وألقى به في هاوية العذاب والمعاناة. وجد "البشير" والده قد تغيّر كثيرا. صوته أصبح أجشّا. كلّما تفوّه ببضعة كلمات كان هناك نوع من الصّرير. تألّم لحال والده وغضب منهم: "كيف وصل به الأمر إلى هذا الحد؟! كان عليكم أن تعلموني. سأصطحبه إلى العاصمة. لابدّ من إجراء بعض التّحاليل للتأكّد من بعض الأمور". ولم يجرؤ على إخبارهم أنّها أعراض لسرطان الرّئة. إنّه طبيب ولا يخفى عليه المرض. عليه التأكّد. لم يكن الأب يرغب في السّفر أو مفارقته عائلته وعشيرته وأرضه. ليس باليد حيلة. قد يكون سفر الشّفاء. ربّما يجلب له بعض الرّاحة وبعض السّكينة. لقد تعب وخارت قواه. فاستسلم للبشير وتركه يقرّر ما يراه صائبا. وطلب منها "البشير" أن ترافقهما. بقيت أمّها مع البنات وسافرت معهما. لم تكن ترغب في الذهاب إلى منزل

"صليحة" ولكن لا خيار أمامها. زوجها يحتاجها. أيّام وتمرّ وتعود إلى منزلها. عليها أن تصبر."الصّبر". وارتسمت على محيّاها ابتسامة حزن .

واستقبلتهم "صليحة" بفتور. شتّان بين احتفائهم بها وجفائها. خروف يُنحر لأجل مقدمها ووليمة تُقام ترحيبا بها. أتراها عادة بنات المدن وشأنهنّ مع الضّيف أم تراها عادتها وحدها وتعبير منها عن رفضها لوجودهم في حياتها؟

تأكّد "البشير" أن سرطان الرّئة قد تمكّن من جسد أبيه وأنّه أصبح في مرحلة متأخّرة. أعلمها بذلك وطلب منها أن تكتم الأمر عن "عبد الله" ولو لبعض الوقت ريثما يفكّر في طريقة لإيصال الخبر إليه.

سرطان؟؟. كثيرا ما سمعت عن هذا المرض في السّنوات الأخيرة. يقولون أنّه قاتل ولا أحد ينجو منه. أ آن لها أن تصبح أرملة. أليس باكرا؟ هزأت من نفسها. قد جرّبت الطّلاق وجرّبت أن تكون ثكلى ويبدو أنّه آن الأوان لتكون بلا زوج ."البشير" أعلمها أن أيّام "عبد الله " قد باتت معدودة. ولكنّها تعرف وتؤمن أن الأعمار بيد الله وحده فهو الوحيد الذي يعلم أنّى يكون أجلنا. أتطوّر الطبّ إلى حدّ أنّه أصبح يعرف ميعاد موت الإنسان؟ أيّ هراء يجعلهم يقرّرون حياة إنسان وعدمها. متى كان المخلوق الضّعيف يعلم الغيب ويدرك موعد الحياة وموعد الموت. واستطاعت أن تتغلّب ولو قليلا على مخاوفها ربّما مدّ الله في أنفاسه. إنّه رحيم وسيرأف بحالها هي وبناتها. إنّه عليم يعلم أن لا سند لهنّ إلاّه. إنّه الواسع وستسعها رحمته فيعطف عليهن. إنّه الكريم وسيكرم زوجها ويشفيه. إنّه البارئ وهو الذي يهب الحياة للأحياء ويُوجدهم من العدم. إنّه الخالق الذي بيده وحده الحياة والموت. إنّه السّميع وسيسمع دعاءها ويستجيب له... وتواصل مناجاتها وترديد كل ما علق في رأسها من أدعية ومن أسماء الله جهرا وسرّا.

طال مكوث "عبد الله" في مستشفى شارل نيكول ولم يكن باستطاعتها البقاء أكثر. عليها أن تعود إلى منزلها وإلى "**قُطّيس**". الذي أصبح جنّة بالنسبة لها وهي في العاصمة ذلك العالم الغريب العجيب في عينيها. أهل زوجها لم تعد تعتبرهم غرباء عنها بل إنّها في تلك الأيّام شعرت بحنين إليهم فهم يشبهونها وهي تشبههم حتّى وإن ضاقوا بها وضاقت بهم ضيقا لايشبه ضيق

"صليحة" بوجودها. تذكر كيف خصّصت لها غرفة تكاد تكون سجنا صغيرا. لا يدخلها النّور ولا الهواء. لم تبال. تعوّدت على قسوة بعض البشر وقُبح نفوسهم. كانت تشفق على الأطفال الذين تدرّسهم. إنّها جاهلة كما تصفها "صليحة" وما وطئت رجلاها مدرسة ولكنّها تعرف أن المعلّمة ملاك يحنو على من حوله ويزوّدهم بما حرمت منه هي وغيرها. ولكنّها لا تجد ذلك في "صليحة" ولا لمسته منها يوما ولو كان زلّة منها. كانت تبدو لها مثل أتانهم التي كلّما دنا أحدهم منها إلاّ وركلته أو رفسته. ابتسمت لما جال في خاطرها وحمدت ربّها أنّ زوجة "البشير" تجهل ذلك وإلاّ زادت من قسوتها. و ربّما وشت بها عند الابن المدلّل "حمدا للّه أنّ لا أحد يبصر ما بنفوسنا". عادت إلى أسرتها. وجدت بناتها في حالة يرثى لها. لأوّل مرة تتركهنّ وحدهنّ. كان الخوف والهلع من المجهول وممّا سيأتي به الغد قد أخذ من نفوسهنّ مأخذا. تذكر كم بكين عندما علمن بمرض الأب وخطورته. "هناء" ابنة زوجها بدأت تقطّع شعرها تصرخ قائلة: "أ كُتب عليّ أن أفقد الأمّ ثم أفقد الأب؟" وبقيّة البنات نسين عند سماعهنّ الخبر المشؤوم كلّ ما بدر من الأب من قسوة وكلّ ما عانينه من ضرب. لم يتبادر إلى أذهانهنّ إلاّ صورة رجل مسكين مريض يكابد السّعال ويكابد أوجاعا لا حصر لها. حدّثتهن الأمّ عن شوقه إليهنّ وعن ندمه غير المعلن لما تعرّضن إليه من أذى من قبله. عن عبرات يكتمها كلّما تحدّث عنهنّ عن أسفه لأنّه لم يسمح لهنّ بالدّراسة لتكون سلاحا يحاربن به قسوة الحياة وجبروت بني الإنسان، عن فزعه من غد ينتظرهنّ دون أب...

خاطبتهنّ بصوت تغلبه الدّموع صوت مبحوح من أثر البكاء ومن أثر ما عانته أثناء تواجدها بالعاصمة "إنّ "البشير" سندنا. ربّما شفى الله والدكم. قدرة الله لا حدود لها وحده يعلم الغيب لا الأطبّاء..." وتخنقها العبرات والحزن. لا تدري هل تواسي نفسها أم تواسيهنّ. ربّما ما أحبّت زوجها وهل لمثلها أن يحبّ أو حتّى مجرّد أن يفكرّ في ذلك. ربّما كانت لحظات الصّفو معه معدودة أو تكاد تكون معدومة. كثيرا ما ظلمها. كثيرا ما ذاقت منه ألوانا من العذاب. كثيرا ما ترك سوطه اللّعين آثارا بشعة على أجزاء متفرّقة من جسدها. كثيرا ما ترك لسانه السّليط جروحا في النّفس لا تندمل ولا تختفي

... ولكنّه زوجها ووالد بناتها وهنّ صغيرات بين طفولة ومراهقة. لم تتزوّج إلا ابنة زوجها "هناء" وابنتها الكبرى "عانس". "عانس" التي سمّاها على اسم أمّه. تذكر كم كرهت هذا الاسم وتشاءمت منه. خافت أن تكون العنوسة مصير ابنتها ولكنّ الله كان رحيما بها وتزوّجت الابنة رغم صغر سنّها ورغم بكائها المتواصل وتوسّلاتها الموجعة ورفضها للعريس. كانت لها الكثير من الأحلام أحلام بسيطة ولكنّها جميلة. كانت تهفو إلى الحبّ إلى رجل تشتهيه في خيالها. ترغب فيه وفي رؤيته لا رجلا يتعثّر كلّما تفوّه ببضعة كلمات. رجلا لا يعرف من الحياة إلاّ حياة الغنم أسرارها ولا يُحدّث إلاّ عن المراعي الخصبة والمراعي الجدباء. إنّها لا تعرف من العوالم إلاّ عالم عشيرتها. لكنّها سمعت عن حيوات أخرى تختلف عن حياة أمّها ولا تشبهها. فيها بعض الفرح بعض الدّلال بعض الرّاحة أم أنّه لا يحقّ لها حتّى مجرّد الحلم؟

والدها زجرها عندما حاولت أن ترفض وأن تتمرّد على نواميس جائرة: "متى كانت البنت تبدي رأيا أو ترفض؟ أم تراك تريدين أن أصبح مضغة بين الأفواه وعرّة بين الرّجال". وجعلها سوطه تصمت وتتيقّن أن مثيلاتها خُلقن للطّاعة وللاستسلام لا لتحلمن وتبحثن عن بصيص نور وعن أمل جديد. تكفيهنّ نعمة الحياة. ذلك اليوم وقد بلغها نبأ مرض أبيها لم يعد يعنيها إن كان مُنصفا أو ظالما. ليته يعيش ويُمنح عمرا جديدا وستكون شاكرة زواجها من "سعد" وستسعد كما لم تسعد امرأة من قبل. ستتجاهل كرهها له. ستتناسى تلعثمه وعجزه عن جمع شتات كلماته والتفوّه بعبارة مفهومة. لم تعد ترجو من الحياة إلاّ حياة لأبيها. إنّها الكبرى وأكثر تواصلا مع أخواتها من "هناء" وهنّ صغيرات خائفات من مجهول يتربّص بهنّ إن مات "عبد الله". لا تعرف كيف. وما الذي يمكنها أن تقوم به ولكن عليها أن تفعل شيئا. أمّها حملت من الهموم والأثقال ومازالت ما يهدّ الجبال وكانت الدّنيا قاسية معها. أرزاء الحياة كثيرة وثقيلة. إنّها الكبرى. لطالما تألّمت لآلام "بيّة" ولعذابها اللاّمتناهي. وفي بعض الأحيان كانت تكره استسلامها. تكره عجزها ثم تجد لها العذر الكافي وتخاطب نفسها: "ماذا عساها تفعل؟ ربّما وجودنا هو الذي عمّق مأساتها. لو كنّا رجالا لواجهت بنا ظلم بني البشر".

وكلّما كبرت عندها عقدة الذّنب كلّما زادت رغبتها في التّخفيف عن أمّها. فكانت لها خير رفيقة وصديقة .
تذكر كيف مرّت الأيّام بطيئة ثقيلة رتيبة. وعبد الله يمكث في المستشفى. يزورونه من حين لآخر زيارات متباعدة. كلّما أبصرته وقد أنهكه المرض شعرت أنّ موته على الأبواب يقترب منه بتؤدة لمنحه بعض الحياة أو ليزيده بعض الشّقاء. يتبادر إلى ذهنها وهي تراه على تلك الحال أن الموت والحياة يلهوان به.

كان "البشير" يتكفّل ببعض مصاريف العلاج وباع بعض الخرفان من أجل ذلك. زوجته أظهرت شفقة في البدء. وعندما طال مرض "عبد الله" تذمّرت وأعلنت أنّ الأموال التي تذهب لعلاج مريض ميؤوس من شفائه الأجدر أن تكون من نصيب ابنها أو ابنتها الذي مازال جنينا يتخبّط في أحشائها.

حدّثت "بيّة" بناتها في إحدى اللّيالي الشّتويّة: "لقد حرمنا والدكم من الغالي ومن الرّخيص عند زواج "البشير" لتلبية طلبات العروس وشروطها التي لا تنتهي. كان يريده رافع الرّأس فخورا بأبيه. لم يبخل عليه بشيء ولو فاق الحدّ ومهما ضاقت بنا الحال."صليحة" كانت تعلم ذلك وهاهي تنكره اليوم. تلك حال بنات المدينة. كان "عبد الله" على صواب عندما تمنّى زواجه من ابنة عمّه. إذا بلغه ما تقوله فسيموت كمدا وحزنا من نكرانها لما فعله من أجل "البشير". وسيكون حينها موته جرّاء ذلك لا جرّاء المرض". فتشعر الأخوات بكره لزوجة الأخ. ولكن ما باليد حيلة. ليس أمامهنّ إلاّ الانتظار وبيع ما تبقّى من أغنام وخرفان. وستكون الأرض ملاذهم إنّ اشتدّ المصاب أكثر وأغلقت منافذ الفرج .

مرّت الشّهور وهنّ يأملن شفاء الأب وعودته إلى منزله وإلى أرضه وإلى أسرته والى شجرة التّين المترامية في فناء المنزل والتي كان يفضّل الجلوس تحتها. إنّه مكانه المعهود. فيه مجلسه وفيه مضجعه إن داهمه النّعاس ذات قيلولة أو ذات ليلة صيف مقمرة. جذعها متّكأ عند التّعب وعند الأزمات. إنّه لا يطيق الجدران. تشعره بالأسر وهو قد تعوّد منذ الصّبا مذ كان يقطن خيمة بالانطلاق في الفضاء الواسع بشمس تغمره بنورها بنجوم تتلألأ فوقه. هاهي "الثريّا" وتلك "العصيّا" وهناك "عيّوق" و"المرزم" و"المنازل" .يقضي

لياليه في مشاهدتها عندما يهجره النّوم وعندما كان يحرس الغنم خوفا عليها من ذئاب الصّحاري أو ذئاب البشر. وقد يعدّها أحيانا عل النّوم الذي جافاه يكون من نصيبه.

تذكّر "بيّة" أنّها كانت تتفطّن إليه خلسة غارقا في تأمّل عميق شارد الذهن. لم تكن تجرؤ على سؤاله وإن فكّرت فإنّها تطرد ما خالجها من تفكير وتتعوّذ من الشّيطان الذي يوسوس لها. تعلم جيّدا أنّه سينهرها وسيؤنّبها على فعلتها الشّنعاء فلا حقّ لها في السّؤال. لم تكن تعلم أنّه كثيرا ما ذكر السّنوات القليلة التي قضاها مع زوجته "الهادية" والتي سمّى ابنته الثّانية على اسمها. لا تعلم أنّه أحبّها وكاد يموت كمدا وحزنا لفقدانها إنّه رجل وليس من الرّجولة أن يتحدّث عن حبّه وعن لوعته وعن فراق أبديّ. عن موت اختطفها منه ومن طفليها. إنّها الوحيدة التي أخذت بمجامع قلبه. "بيّة" كانت تظنّه يكرهها لإنجابها فقط لأناثي. ولم تكن تدرك أنّها هي من أشعرته أنّه شرّ لابدّ منه وأنّها وإن كانت مطيعة على أتمّ استعداد لتقديم فروض الولاء فإنّه كان يشعر بنفورها منه وبروحها الهائمة بعيدا عنه وبحزنها المتواصل الذي تسعى إلى قبره كي لا يتبرّم ويتّهمها بحنينها إلى زوجها الأوّل وإلى ابنها الغائب والبعيد عنها .

رأت فيه القسوة اللاّمتناهية ورأت فيه السّيد وهي الخادم. المرأة المغلوبة على أمرها والتي عليها الاستسلام والطّاعة مهما اشتدّ جبروته ومهما ظلمها. أتريد أن تصبح مطلّقة من جديد وللمرّة الثّانية؟ لا تعلم أنّه كثيرا ما أشفق عليها ولكنّه رجل وعليه أن يكون الآمر النّاهي في أسرته كي لا يبدو ضعيفا أمامهم. متى يعود إلى هذا المجلس وأمامه شايه و"البرّاد" حاضر ملازم له. جاهز فوق الرّماد أو فوق الجمر. لا تستقيم الحياة إلاّ به وبالسّيجارة تلو السّيجارة. يتصاعد دخانها وهو ينظر إليها باشتهاء. كم اشتهى زوجته الأولى. كم رغب فيها وكم اشتاق إليها. مرّت سنوات. عُمر بحاله وصورتها لا تفارقه. رائحة بخورها "السخاب" عالقة بأنفه يشمّها كلّما زارته في نومه وفي أحلام يقظته. شعرها الأسود الطّويل مرسل أمام عينيه كلّما اشتدّ سواد اللّيل وكلّما اشتدّت شهوته. ترى ما فعل تراب القبر فيه ؟ أتراه لقاء قريب؟ أم عساه مجرّد حنين؟

يزداد سعاله ويتفاقم وجعه فيهزأ من المرض ويعلن تحدّيه له ويتطلّع إلى أرضه. الأرض التي كانت مرعى ثم حقول قمح وشعير ثم هاهي اليوم تزهو بأشجار اللّوز والزّيتون. هذه الأرض عالمه ووطنه وحياته. ويبتسم بحرقة: "ما جمع بيني وبين "بيّة" إلاّ عشق الأرض... المهمّ أن شيئا ما قد جمع بيننا".

يفكّر في تلك الشّجرة التي بدأت تتمايل مثقلة بحبّات الزّيتون وبتلك الأعشاب الطفيليّة التي تزاحم الأشجار في مياه الريّ ولا جدوى منها. تلك الشّاة، ترى متى ستلد؟. ذلك الخروف نذره لسيّده "حمد زريبة". سيذبحه احتفالا بشفائه وسيفرّق لحمه على أهل "الدّوار".

سيحلّ المولود الجديد. حفيده ابن "البشير". قالوا إنّ زوجته في الشّهر التّاسع. إنّها لا تزورهم. تتعلّل بالحمل. يدرك جيّدا أنها لا تحبّهم. ليس مهمّا. المهمّ أن لا تمنع عنهم الحفيد. إنّه ينتظره على أحرّ من الجمر. يتلهّف لرؤيته. سيبصر في وجهه الملائكيّ بعضا من ابنه وبعضا من "الهادية". قد يكون ولدا. لم يعد يعنيه جنس المولود. المرض فتح عينيه على حقيقة غابت عنه عمرا. ما عطف عليه وما أشعره بالسّكينة إلاّ بناته. كنّ يتسابقن لإرضائه. لا همّ لهنّ إلاّ شفاؤه ولا عزاء لهنّ إلاّ حضوره بينهنّ. ولكنّ الموت يقترب منه رويدا رويدا ويتربّص به فاغرا فاه. أتُراها النهاية؟. أتراه آن الأوان ليودّع؟. لعلّه يلتقي "الهادية" هناك. إنّ طيفها يلازمه منذ تمكّن المرض من جسده وشعر بشبح الموت يخيّم عليه. طيف يخفّف عنه بعض الوجع. طيف يعيد إليه بعض الشّباب أو بعض ذكرياته. ألم في الجسد يشتدّ وأمل في الشّفاء يعتمل بداخله.

لم يعد "عبد الله". طال بقاؤه في المستشفى وطال انتظار العائلة لشفائه ولرجوعه. وبقي مجلسه خاويا ينتظر صاحبه وذبُلت شجرة التّين. يقال أنّ الأشجار تتأثّر لما يصيب غارسها فتذبل بذبوله وتموت بموته. وتشعر... كلّما نظرت إلى مجلسه أن هناك غائبا قد يؤوب. ذكّرها غيابه بغيبة "علي" في المغرب."علي" الذي ما عاد والذي بقي جرحا غائرا في القلب لم يُشفى. جرحا ينزف منذ سنين. وغيبة "عبد الله" آلمتها كثيرا. مرضه أصابها برجّة

من الدّاخل. جعلها تهلع من مجهول آت. فاغرا فاه للانقضاض عليها هي وبناتها. هل يمسي البيت بلا رجل؟
الموت قضاء وقدر. ولكن أن تعيش مع صبايا لا رجل يحميهنّ فتلك الطّامة الكبرى. ذلك يعني أنهنّ سيصبحن حديث مجالس النّساء والرّجال. سيصبحن في قفص اتّهام. متّهمات بجرائم لم يرتكبنها. شبابهنّ وأنوثتهنّ هي في حدّ ذاتها خطيئة وغياب "البشير" عنهنّ سيزيد من التّلاسن حولهنّ.

"البشير" قلّت زياراته منذ تزوّج. وإن زارهنّ فليبيع بعض الخرفان من أجل المال. يقول أنّ راتبه لا يكفيه ومتطلّبات المدينة ليست مثل البادية. في إحدى المرّات خرجت عن صمتها وقالت له: "قد رضينا بالقليل وبما قسمه الله لنا ولكنّنا على حافّة الفقر وضنك الحياة. أضنتنا الحاجة وأنت بصير عليم بحالنا الذي لا يسرّ حبيبا ولا عدوّا. كنّا نطمع في غوثك ومساعدتك لنا وها أنّك تطمع في قوتنا ". أجابها بانفعال "لو كنت أمّا لي لما بدر منك هذا الكلام. أظنّ مرض أبي سمح لك بالتّطاول عليّ". بكت: "جُدت عليك بالقليل وبالكثير. حرمت نفسي وبناتي لأجلك منذ كنت طفلا... لم أشعرك يوما باليتم ولا بالخصاصة رغم الحاجة وضيق ذات اليد. ولكن يعلم الله ما بنا ". ردّ دون خجل " "صليحة" تعوّدت على الدّلال وبناتك تعوّدن على الخصاصة. زوجتي حامل لا أستطيع حرمانها ممّا تشتهي ولا تنسي أنّها على أبواب ولادة".

علت في العاصمة صرخة المولود الجديد. أنجبت "صليحة" ابنتها في العاصمة وأقامت لها حفلا حضره أهلها. لا داعي لحضور عائلة زوجها. أسرّت لأمّها "لا أريدهم في منزلي .من حسن الحظ أنهنّ منشغلات بمرض الأب. ماذا سيقول الناس عنّي إن حضرن. عمّات ابنتي جاهلات "عُربان" لا يفقهن من الحياة إلاّ عيشة البدو". وعلت في "قُطّيس" صرخات الوجع وشهقات اليتم. مات الأب. رحل "عبد الله". كان موته منتظرا ولكنّه كان سريعا. لم يترك لهنّ مجالا للاستعداد له وللتّفكير في حياتهنّ القادمة دونه. كان هناك بصيص أمل في شفائه وشتّان بين هذا الأمل الواهم وبين واقع موته.

ذكرى موت زوجها مؤلمة ولكن ما يؤلمها أكثر أنّها ودّت آنذاك كثيرا لو ترحل عن هذا المكان. عن هذا العالم القاسي. قسوة زوجها كانت قطرة من بحر أمام جبروت وطمع أهله. أخوه بدا وكأنّه ينتظر منيّته على أحرّ من الجمر. لم يمرّ على وفاة "عبد الله" سوى بضعة أيّام. انتصب أمامها كديك ينفش ريشه ثم شبك يديه وراء ظهره وتمشّى بضع خطوات إلى اليمين ثم بضعة خطوات إلى اليسار وكأنّه سيلقي خطابا مصيريّا. "إنّك غريبة عنّا وزواجك من أخي لم يثمر إلا الأناثي. ثم إنّك مصدر شؤم. فها قد مات وآن لك أن تُفارقينا. "البشير" اختار حياته هناك في العاصمة. لا مكان لك بيننا والبنات بامكانهنّ البقاء. زوجتي تحتاجهنّ لمساعدتها". كان جوابها دموعا وصمتا متواصلا. ماذا عساها تردّ عليه وهي الضّعيفة التي لم تنجب رجلا يتصدّى له، مكسورة الجناحين لاقدرة لها على مواجهته. إنّه يريد بناتها خادمات لزوجته أمّ الأولاد. آه لو كنّ تعلّمن لكنّ استطعن مواجهته. إنّه يريد الأرض. له خمسة أبناء رجال كما يحلو له ولزوجته أن يصفهنّ ويجب أن يرثوا أرض "عبد الله" وإلاّ فإنّها ستؤول إلى رجال غرباء. هذا ما شغل تفكير "بلقاسم" العمّ الذي تملّكه الطّمع وأصبح يفكّر في امتلاك الأرض ولو بالقوّة فهي امرأة ولا خوف منها. و"البشير" لن يهتمّ فحياته هناك بل إنّه سيرحّب برحيلها فالأكيد أنّها أمست عبئا ثقيلا ينتظر الخلاص منه فليحقّق مبتغاه قبل فوات الأوان. "بيّة" عثرة أمام ما يطمع فيه وما يطمح إليه. إنّها شوكة في الحلق متى انتزعها تذوّق حلاوة الحصول على الأرض خاصّة وأنّها جعلت منها مصدر خيرات ورزق وفير.

ولكنّ "البشير" كان له بالمرصاد. حذّره من الاقتراب من زوجة أبيه وأخواته وأن ينأى بأطماعه عن الأرض. أسعدها موقفه وإن لم يكن حبّا فيهنّ بل كان تمسّكا بأرض والده وبما توفّره له. فمن سيعمل فيها ويعتني بها أفضل من "بيّة". إنّها تتقن كلّ الأعمال الفلاحيّة. هو نفسه تعلّم منها الكثير عن الأرض وأسرارها في صباه. وكان خبيرا عليما بأطماع عمّه التي لا حدود لها. ثم إن مصير أخواته الزّواج ورجال يتكفّلون بهنّ ومادمن عازبات فهو سيحتاجهنّ ليساعدن زوجته على تربية الأبناء خاصّة وأنّها تعمل. فليصطحب معه إحداهنّ أفضل من إحضار معينة منزليّة. فيضرب

عصفورين بحجر واحد فالنّاس سيمدحونه ويشيدون بمروءته وحفاظه على عرض أخواته وشرفهنّ. و سيضربون به المثل في الشّهامة فهو لم يتخل عنهنّ بعد فقدان الأب وسيجني من تعبهنّ في الأرض الكثير. إنّه السّيد وهنّ الجواري. ورثهنّ عن والده. له حقّ الأخذ والأمر ولهنّ واجب العطاء والطّاعة. سيقول النّاس أنهنّ لولاه لضعن وتهن في دروب الحياة ومسالكها الوعرة المجهولة. يكفيهنّ أنهنّ بفضله سيطعمن وسيجدن مأوى يقيهنّ حرّ الألسنة اللاّذعة وقرّ العيون الفضوليّة. سيحميهنّ من غدر الزّمان ونسي غدره هو. سيقرّ الجميع بفضله ويُعلي القوم من شأنه. سيقولون "رجل ولا كل الرّجال". ثم متى كان للمرأة حقوق في عرف أجداده؟

الحقوق هناك في العاصمة لابنة المدينة التي لا حدود لأحلامها ولا لأطماعها. تربّت على ذلك فليرض بها كما هي.هناك يصبح خير المدافعين عن "نصف المجتمع"، شراسة لا مثيل لها وفصاحة في ذكر أفضال المرأة وحقوقها وواجبات الرّجل نحوها.
كان "البشير" يحمل قناع النّخوة والتّقدّم. قناع الرّجل المُنصف للنّساء الواعي بآلامهنّ وبأحلامهنّ المدافع عن مطالبهن. أمّا زوجة أبيه وأخواته فكأنهنّ لا تنتمين إلى النّساء اللاتي يتحدّث عنهنّ. فكان ما يتشدّق به في المدينة سلاحه ووسيلته ليجلب انتباه مريضاته ويشعرهنّ أنّه الطّبيب الملاك. وهذا ما يحاول إثباته لزوجته ولعائلتها لتكون على يقين أنّها أحسنت الاختيار وفازت بفارس الأحلام الذي لا يُشقّ له غبار الذي يحمل جود البادية في خلقه ويتحلّى بحداثة المدينة وتقدّمها في سلوكه. أليس هذا ما تريده؟ فليكن. المهمّ أن يكون الحال كما تشتهي وكما يريد هو ويبتغي. يلبّي طلباتها وحبّها للمال ويحافظ على الصّورة الاجتماعيّة التي حلم بها مذ كان فتى يرتاد مقاعد الدّراسة. حينها في ذلك الزّمن البعيد قرّر أن يكون له موقع في المجتمع يختلف عن موقعه بين أهله. صحيح أنّه ذو شأن في عائلته ويُحسب له ألف حساب ولكنّ تحقيق مكانة في العاصمة له مذاق الشّهد وإحساس النّصر.

ما على "بيّة" إلاّ الشّكر والحمد. يكفيها أن اسمه سيكون درعا يذود عنهنّ عارا محتملا وتهما كثيرة. وكان طموحه أن يأخذ المقابل وهو الأرض.

ليست إلاّ مسألة وقت وها قد حان هذا الوقت بموت "عبد الله". تذكر كيف لم يمرّ على موت زوجها إلاّ القليل. وكانت الوجوه جريحة والنّدوب كثيرة من أثر لطم الخدود وخمشها والنّفوس حزينة كسيرة. طلب منهنّ "البشير" أن يذهبن معه إلى مكتب في المدينة. كان الرّجل الجالس فيه على كرسيّه الفخم يدعى "زهير". طلب منهنّ التّوقيع على أوراق وكنّ قاصرات جاهلات أذلّهنّ اليتم والانكسار. مطيعات المهمّ أن يكون الأخ الذي أصبح بمثابة أب ثان كما أخبرهنّ وهو يواسيهنّ أمام النّاس وجثمان الأب مسجّى مازال لم يستقرّ في مثواه الأخير. أن يكون راضيا. بعد سنوات أدركن أنهنّ قد تنازلن عن ميراثهنّ للبشير مع اجتهاد من معارفه أصحاب المناصب لتبدو العمليّة قانونيّة ولا لبس فيها. تذكر ما قاله لابنتها "حسناء" عندما تمرّدت وأعلنت بعض العصيان ورفض الرّجل الذي طلبها للزّواج "إن لم تقبلي وعصيت أمري فكأنّك عصيت أمر أبي رحمه الله وحينها لن يرضى الله عنك ولن يرتاح أبي في قبره". فاستسلمت المسكينة ولم تتفوّه بكلمة وأعلنت الموافقة.

وراقب أخواته وهنّ يقمن بشؤون المنزل. من تراها المناسبة أكثر؟ واختار "جميلة" الأخت الثالثة. إنّها تجيد الأعمال المنزليّة أكثر من أخواتها وتهتمّ بالنّظافة كثيرا. وهذا هو المطلوب. سترضى عنها "صليحة". ولن تلحّ كعادتها مطالبة بإحضار معينة منزليّة. فلا معينة أفضل من أخته. لن تُسيء لابنته وستجعل المنزل نظيفا مرتّبا فيكون قرير العين مرتاح البال لمصير فلذة كبده ويوفّر أجرة امرأة غريبة.

أمّا "بيّة" فلأوّل مرّة تغادرها إحدى بناتها. فارقتها "الجازية" فراق الموت ولكنّها مشيئة الله وقضاؤه الذي لارادّ له. أمّا فراق "جميلة" فكان مرّا قاسيا مهيّجا للكثير من المخاوف. أيخاف على فلذة كبده على ابنته الرّضيعة؟ ألا تخاف هي أيضا على فلذة كبدها على ابنتها الصبيّة التي قد تتوه في زُحام المدينة وفي أزقّتها العفنة،في وحلها الذي تسمع عنه كثيرا؟. أليست زهرة يانعة في الخامسة عشرة. ألا تحتاج إلى حضن أمّها وإلى دفء عائلتها وصحبة أخواتها. من لها هناك وهي تجهل الكثير بل لا تعلم شيئا؟ أم أنّها ضريبة الأنوثة واليتم ؟ هذه المرّة ما عليها إلاّ الاستسلام لمشيئة البشر ولو كانت ظالمة. ما باليد حيلة ولا حقّ لها أن تعترض.

كانت مركبة الذّكريات تسرع بها تطوي السّنين طيّا. تمرّ عبر محطّات العمر ولا تريد التوقّف. تحاول جمع شتاتها فتجدها مختلطة تتداخل فتحرّك رأسها يمنة ويسرة واضعة يدها على جبينها تنفضها عنها. وجعها كبير كبير. إنّها مثل الغبار الذي يطمس الرؤيا ويحجب عنها معالم كثيرة. فوضى الذكريات عارمة جارفة لا تعلم أين ستطوّح بها؟

أبصرت "بلقاسم" من بعيد أمام منزله. كان على كرسيّه المتحرّك. بلغ من العمر أرذله. مبتور السّاق لمرض ألمّ به. يلُوح عليه الانكسار والحزن. كلّما نظرت إليه أحسّت مزيجا من الشّفقة والشّماتة. أتراه عقاب الله على جبروته وإيذائه لها ولغيرها؟ تمتمت: "اللّهم أحسن خاتمتنا. ما نفعه مال ولا ولد. أين أولاده الخمسة؟ أين "رجاله"؟ أين العزوة التي تباهى بها كلّما اعترضت طريقه إحدى بناتي. أين الذّكر الذي تشدّق به والذي عيّرتني زوجته بعجزي عن إنجابه؟"

أحسّت أنّ معدتها خاوية ولكنّها لا تشعر بجوع ولا رغبة لها في الطّعام رغم أنّها لم تذق الزّاد منذ الصّباح. الوحدة قاتلة وإن تعوّدت عليها منذ سنوات. وما يقتلها أكثر هو اقتراب موعد فراقها لهذه الأرض.سيصبح لها مالك جديد. لعلّه يحبّها مثلما أحبّتها هي. "قسوة بني البشر لا حدود لها وأطماعه لن تنتهي. ومصيرنا واحد القبر. هناك يتساوى الجميع". لم يبق لها إلاّ الذّكريات تجترّها الواحدة تلو الأخرى. تحمل الكثير من الأوجاع الكثير من الجروح. علّمتها دروسا وعبرا ربّما من ذهبوا إلى المدارس ما تعلّموها. علّمتها أنّ الغدر في طبع الإنسان وأنّ جشعه وظلمه لا ينتهيان إلاّ بموته. أشفقت على نفسها. منذ طفولتها وهي تعطي عطاء لا حدّ له. لا تذكر أنّها أخذت ولا فكّرت أنّ لها حقوقا. فقط عليها واجبات. تنازلت ثم تنازلت وأصبحت حياتها سلسلة تنازلات تحوّلت إلى استسلام متواصل وخضوع أبديّ.

لم تعلن غضبا أو تمرّدا إلاّ مرة واحدة لأن ما حدث كان خطيرا وخطبا عظيما ومصيبة كبيرة بالنّسبة لها. كانت ابنتها السّادسة "حسناء" صغيرة حينها. طفلة في العاشرة من العمر. ولكنّها مطالبة برعي الأغنام ولا تستطيع أيّ واحدة من أخواتها مرافقتها. كنّ يساعدن الأب في جني الزّيتون. في

الأيّام الأولى كانت تنطلق مع القطيع مبتهجة نحو المرعى الذي كان مشتركا لأهل "الدّوار". ومع مرور الأيّام لاحظت "بيّة" أنّ ابنتها أصبحت ترافق قطيعها على مضض. ولولا خوفها من أبيها لما ذهبت. وتعود وعلى وجهها شحوب واصفرار وهلع يكسو ملامحها الطفوليّة وبعض العبرات في مآقيها. لعلّها مريضة أو دلال طفلة ضجرت من الرّعي فهي تحاول التملّص ممّا ألقي على عاتقها. تسألها فتعلمها أنّها متعبة. و في يوم انفردت بها الأمّ وقد بدأ الخوف من مجهول يسكنها ويقضّ مضجعها. وكان يجب أن تغور في مكامنها وأن تعلم سرّ تحوّلها. أتراه العار الذي خشيته منذ أنجبت البنت الأولى؟

كانت "حسناء" ترتجف وتلتفت حولها خوف أن يسمعها أحد. كانت ترغب فقط أن تحدّث أمّها في غياب بقيّة أفراد العائلة. كانت تغالب الدّمع لا تعرف من أين تبدأ. تخونها الكلمات وهي التي عرفت من بين أخواتها بثرثرتها اللاّمتناهية وبلسانها الطّويل كما يقول "عبد الله". بدأ خيال "بيّة" يشطح بعيدا ويرسم قصصا وحكايات سوداء مظلمة مأساويّة. "ربّاه ما تراه حدث؟ ألاتكفينا قسوة الحياة! تكلّمي وإلا ناديت والدك". ويزداد فزع البنيّة وهلعها "والدها". لم ترتكب جرما ولا خطيئة ولكن كيف ستخبرهم. نطقت أخيرا: "إنّه "حافظ" ابن عمّي" بلقاسم". يلاحقني أينما تبعت القطيع ويقول لي تعالي نلعب لعبة العريس والعروس. فأهرب منه ... فيغضب.

ويواصل ملاحقته وإلحاحه...". وتصمت الطفلة خجلا وألما ثمّ تواصل وأمّها تحثّها على الكلام "لقد جذبني من ثوبي بقوّة وطلب منّي أن أذهب معه وراء شجرة السّدر. رفضت... هدّدني بالضّرب فهدّدته بالصّراخ. لعنني ولعنك... قال كلاما بذيئا... صفعني... كانت الصّفعة مؤلمة جدا... فهربت منه. وظننت أنّه لن يعود مرّة أخرى. ثمّ عاد في يوم آخر. لم يكن غاضبا بل مبتسما رقيقا معي. أحضر لي حلوى كثيرة ووعدني أنّه لن يلمسني... كنت أريدها. رغبت كثيرا في أكلها. لم أذق حلوى منذ زمن بعيد. ولكنّي خفت منه. ذكّرني بذلك الذئب الذي هجم على الغنم وقتله أبي... كدت أتقيّأ وأنا أتخيّل مذاقها في فمي. ما عدت أرغب فيها ولا أشتهيها. أخذتها وألقيتها على وجهه. ضحك... كان ضحكه مثل نهيق الحمار كشف عن فم مرعب

وصدرت عنه رائحة كريهة مثل الرّوث. شدّني من يدي . كنت أشعر يا أمّي أنّي مثل ذلك العصفور الذي أخذته من عشّه وربطته في فناء المنزل تحت شجرة التّين. كان يرتجف مثل ورقة. كان يبحث عن النّجاة وعن الحرّية. لن أقيّد عصفورا مرّة أخرى ولن أسجنه أبدا. ثم أصبح جثّة هامدة... همس في أذني وكان همسه مثل فحيح الأفعى. الأفعى التي هاجمتنا ذلك الصّيف في شهر أوسّو الذي قلت أن "الجازية" ماتت فيه: "انزعي سروالك الدّاخلي". تظاهرت بالموافقة وانحنيت... أخذت حفنة من التّراب. عفّرت بها وجهه... تألّم شتمني وسبّني. قال عنّي "ابنة العاهرة". ركضت بعيدا... تذكّرت القطيع. خفت من أبي. عدت بحذر. كدت أطير مثل تلك الحمامة التي وجدها "البشير" في أعلى الشجرة وأراد ذبحها وكادت تتحرّر منه ولكنّه هوى بسكّينه فسالت منها الدّماء غزيرة. كانت جميلة صغيرة... لماذا ذبحها يا أمّي؟... كان يتربّص بي... هدّدته أنّي سأشكوه لأبي. هزأ وقال: "أبو البنات". وضحك شامتا: "لن يصدّقك أحد". تحلّيت بالشّجاعة وصرخت مثل تلك الشّاة التي نطحها الكبش فرفسته. لم تخف... "حافظ" أيضا كان جبانا. فخاف من صراخي وانطلق يعدو ولا يلتفت وراءه..."

كانت "حسناء" تشهق وهي تتكلّم ولكنّ خوفها الذي سيطر عليها في الأوّل تحوّل إلى شعور جميل بالانتصار وهي تخبرها عن خوفه وفشله في تحقيق مأربه. وشعرت الأمّ كذلك ببعض الارتياح وحذّرت ابنتها من إخبار أخواتها أو أيّ كان. ودعتها إلى أخذ الحيطة والحذر من أبناء عمّها ومن أيّ ذكر يعترضها.

عاد "عبد الله" في المساء. لأوّل مرة تثور ويعلو صوتها ممّا أثار انتباهه. أخبرته بما حدث بدناءة ابن أخيه "حافظ" الذي ما كان حافظا لعهد ولا حاميا لشرف... وكان المسكين ينتظر من أخيه "بلقاسم" إنصافا وعقابا لابنه ولو مجرّد لوم وتقريع ولكنّه وجد الصدّ والتّجاهل وبلغ به الأمر أن اعتبر الابنة كاذبة تتجنّى على ابنه بتحريض من أمّها غيرة وحسدا. فكانت القطيعة بين الأخوين وبين العائلتين. وعندما كان الحنين يأخذ "عبد الله" إلى أخيه كان يتمتم: "لولا الأناثي لما قاطعني أخي". كانت تتجاهل ذلك وتصمت. يكفيها أن ابنتها سلمت من شرّ الابن. فهي تدرك منذ البدء أنّهم سيضعونها وبناتها

موضع الاتّهام والخطيئة وإن كنّ بريئات. منذ ولدتهنّ وهي على يقين أنهنّ أسيرات تفكيرهم الذكوريّ وتسلّطهم. المهمّ أنّها خرجت من الحادثة بأخفّ الأضرار ومازالت البنت عذراء.

ذكرى بعيدة جدّا. ما الذي جعلها تطفو على سطح الذاكرة ؟. إنّها مثل بقيّة الذكريات فيها من الوجع الكثير. "حسناء" قد تزوّجت وتعيش مع زوجها في الكاف ولا تزورهم إلاّ فيما ندر مرضاة لأمّها. لا ترغب في المجيء إلى هذا المكان. تقول أنّه بغيض إلى نفسها كريه منذ تلك الحادثة ولولا "بيّة" لنسيته إلى الأبد وقطعت كلّ ما يربطها به خاصّة بعد غدر الأخ وافتكاكه الأرض. عانت الكثير بعد ما حصل وكأنّها من أذنبت. زوجة عمّها كانت تكرهها ولطالما حاولت أن توقعها في مشكلة ليكون مصيرها الضّرب أو الشّتم من الأب وكأنّها تنتقم لابنها الذي ضربه "البشير" ضربا جعله لا يجرؤ على الاقتراب مرّة أخرى من إحدى أخواته. و قد هزأ منه أترابه عندما شاهدوا أثار الضّرب وإن لم يعلموا السّبب. المهمّ أنّه مغلوب فهو إذن مدعاة للسّخريّة وموضع تندّر في مجالسهم وسمّوه "حافظ المغلوب". ما زاد من حقد أمّه على "حسناء" وأمّها وأخواتها فزادت من عذابهنّ وإزعاجهنّ خاصّة بعد موت "عبد الله".

انقضت بضعة أشهر على هذا الموت وكانت "حسناء" صغيرة في الثّانية عشرة من عمرها. فتاة حالمة ترنو إلى الفرح إلى بعض السّعادة. ضجرت من حزن أمّها ومن الحداد المتواصل الذي يأسر أهل الدّار والكآبة الجاثمة على القلوب. دموع لا تنقطع كلّما أبصرن مكان الأب خاويا لا حياة فيه وشجرة التّين قد اصفرّت وظهرت عليها علامات الاحتضار. أمّها ما تنفكّ تعلن عن خوفها من النّاس ومن ألسنتهم وممّا قد يلصقونه بهنّ من تهم فكيد النّساء لا حدّ له وشكوك الرّجال لا نهاية لها. افتقدن السّند فشعرت بالتّيه وبالرّيبة والخوف ممّا قد تأتي به الأيّام وشعرن مثلها ولكنّ خوفهنّ كان لأيّام. إنّهنّ شابّات والشّباب يتطلّع إلى الإثارة ويحلم أحلاما كبيرة مهما ضاق ما حوله. وموت الأب وإن كان له بالغ الأثر إذ حزنّ فقد كان له أيضا بالغ الأثر إذ شعرن للمرّة الأولى بقيد ينكسر. لم يعد هناك زجر ومنع بين جدران المنزل. الأجساد ارتاحت من أثار العصا .

أخذت البنيّة هي وأختها "سعيدة" التي تكبرها بسنة وعاء وشرعتا تقرعانه كطبل ثم بدأت "حسناء" تتمايل على وقع النّقرات. ترقص رقصة الباحث عن الانطلاق عن بعض المسرّة عن بعض من نور الحياة بين عتمة الأيّام وسواد القلوب. انطلقت تدور بقدميها وكأنّها تطير ويزداد دورانها وثوبها الفضفاض يرسم دائرة تخفي جسدها الصّغير داخلها ولا تظهر إلاّ رجلاها ويكاد يلتصق بوجهها ويرتفع تدريجيّا إلى الأعلى. نعم الأعلى هو المطلوب، حلّقي يا فتاة عاليا، السّماء، الفضاء، الأفق، امتداد شاسع لا حدود له. و يرتفع القرع مثل صرخة تتعالى لترسم مشهد تمرّد وتحدّ... هناك أين شجرة التّين الصّفراء الذابلة وكأنّهما تبعثان حياة وسط ظلال الموت التي بسطت سوادها بعد موت الأب. دوران دون ملل أو تعب. شعرتا أنّهما كسرتا أصفاد الحداد. تحلّقان عاليا. "سعيدة" لأوّل مرة تأخذ من اسمها نصيبا وتسعد بما تفعله وتمحو غصّة وكمدا في القلب كاد يستوطن به ويحتلّه. كأنّهما تعلنان الحرب على من حولهما. ويتواصل احتفالهما الصّغير. نسيتا الأمّ التي انطلقت نحو المرعى وتحذيرها من إصدار أصوات عالية. تجاهلتا خوفها من النّاس ومراقبتهم لهنّ بعد موت الأب وبحثهم عن زلّة عن خطيئة يقعن فيها فينصبون لهنّ مشانق الحساب والعقاب والعيب والحرام...

بغتة أرعدت السماء وأبرقت وهطلت أمطارها مدرارا وأرسلت ماءها يغسل الأرض من أدرانها ومن رجس قد يكون لحق بها. واصلتا ...لم تمنعهما المطر من التّحليق بل زادت من بهجتهما وشدت "سعيدة":

يا نو خالتي
صبّي على قطّايتي
قطّايتي ذهب
نمشي لدار خالتي
و نلعب الكعب
و أرادت "حسناء" أن تنافسها في الغناء فعلا صوتها :
يا مطر صبّي صبّي صبّي على حوشي القبّي
والقبّي ما عندو شي

غير خبيزة والشّتي
يا مطرْ يا بشباشة
صبّي على حوشْ الباشا
الباشا ما عندو شيْ غير خبيزهْ والشّتي

كانت أغنية ليبيّة علّمها إيّاها أخوها "نصّر" في إحدى زياراته القليلة التي يجود بها عليهنّ وكنّ يسعدن كثيرا لمجيئه. وقد عمل في ليبيا كثيرا وتعلّم هناك أمورا عديدة وكوّن علاقات وصداقات مع ليبيّين جعلته يعرف عن مجتمعهم الكثير. ولم ينقطع رقصها بل زاد وكأنّها لا تريد لطفولتها أنّ تتلاشى وسط هذا السّواد. وترعد السّماء منذرة بالمزيد من الأمطار وتقطر الثّياب ماء وينخفض الثّوب من شدّة البلل. حينها

شعرتا بخوف يدبّ إليهما. الخوف من رقيب. من متطفّل يُنصّب نفسه قاضيا وجلادا يحاكمهما على فعلتهما الشّنعاء. كيف لهما أن ترقصا ولم يمرّ على موت أبيهما الكثير؟. كيف تتجرّآن وتعلنان بعض مشاعر الفرح الطفوليّة... في تلك الأثناء سمعتهما زوجة العمّ. اقتربت بحذر من الباب. ألصقت أذنها. تصغي السّمع. لا يعنيها هطول المطر. المهمّ أن تجد تهمة تجرّمهنّ وتنتقم بذلك لابنها "حافظ" .
عادت الأمّ منهكة. ترتجف من البلل. كان همّها حماية أغنامها من المطر وسوقها إلى زريبتها. وجدت زوجة العمّ تواجهها في تحدّ. أدركت أنّ هذه المرأة مصدر المصائب والمشاكل. ما عساه حدث؟ ألا يكفيها ما تعيشه من عناء وشقاء. لم تنبس بكلمة. لم تسألها. فلتتكلّم وحدها. ستنصت إليها وستحاول أن لا تردّ عليها. واندفعت زوجة العمّ كالسّيل الجارف الذي حمل معه كلّ ما كان خافيا على الأعين "كنت أعرف أنّه لن يأتي من وراء بناتك إلا العار. ماذا يقول عنّا النّاس؟ غناء ورقص؟ ولم يمرّ على موت المسكين إلاّ القليل. لطالما عانى منك أنت وبناتك. لم يجد فيكنّ الخير حيّا ولا ميّتا". عمّا تتحدّث هذه المرأة؟ أتراها جنّت؟ وجدت "حسناء" و"سعيدة" تنتفضان كعصفورين. أصابهما البلل. ترتعشان لا تعرف خوفا أم بردا؟ علمت منهما

ما حدث. لم ترتكبا جرما. طفلتان عمّا ستحاسبهما؟ لكن النّاس؟ ماذا سيقولون عنهنّ؟ بلا رجل "يشكمهنّ"؟ يحتفلن ولم يمرّ على موت الأب إلاّ أيّام؟ ما كان ينقصها إلارقص وغناء. والأدهى والأمرّ أنّ زوجة "بلقاسم" لن تسكت. ستحدّث القاصي والدّاني.
وزوجها سيفعل مثلها وكذلك ابنه. لن يكون لنساء الدوّار من حكاية أو رواية إلاّ ما فعلته البنتان. إنّها فرصتها للانتقام. وكان ظنّها في محلّه. المرأة قامت بواجبها وأكثر. ولام الناس "بيّة" على ما حدث. لم يكن أمامها إلا توبيخ البنتين علّهما تدركان خطأهما. كما لم تدّخر بقيّة الأخوات جهدا للومهما وتأنيبهما على "جريمتهما". ومنذ تلك الحادثة لا تذكر أنّها رأت "حسناء" أو "سعيدة" ترقص أو تغنّي. بل إنّهما كانتا تغضبان إذا دعتهما إحداهنّ إلى ذلك في إحدى المناسبات. لقد تعلّمتا الدّرس جيّدا.

عانت الكثير. آلام لا حدّ لها ولا حصر. تألّمت من أجل نفسها وتألّمت أكثر من أجل بناتها . وهاهو ألم جديد يزيد من وجعها ويحرّكه بعد أن ركد. ألم الذكريات. بعضها ظنّته غاب ورحل وطوته الأيّام والسّنين مثلما تُطوى صفحات كتاب أنهاه قارئه وقرّر أن لا عودة إليه ووضعه على رفوف النّسيان. ولكن هاهي تهبّ عليه رياح العمر فيفتح من جديد. صفحات من هنا وصفحات من هناك. مشتّتة متناثرة بعضه تقرؤه كاملا وبعضه مبتور تمرّ على بضعة سطور منه.

لعلّها الوحدة. آلام كثيرة تصيب رأسها. به وجع يزداد. هل هي الشّيخوخة أم المرض؟ تعلم جيّدا أن بيع الأرض يفقدها صوابها. كثرة التّفكير في ذلك تجعلها على حافّة الجنون. من المضحكات المبكيات أن "صليحة" عندما علمت بما أصابها وبوجع رأسها المتفاقم زارتها وكانت لطيفة معها. سعت إلى إقناعها أن مضرّة قد أصابتها وربما "والله أعلم" وُضع لها سحر وأخبرتها أنّها أعطت صفاتها لصديقتها العرّافة المغربيّة "فتيحة" وأخبرتها بحالتها فأكّدت لها أنّ صاحب الفعلة جار لها. أرضه تجاور أرضها. ولكنّها لم تصب هذه المرّة فما الجاني إلا زوجها ولا وجود لسحر إلا جشعها وطمعها.

لم يبق لها إلاّ اجترار الذكريات رغم وجعها. كانت الأرض دوما ملاذها. حضن دافئ تلجأ إليه وترى فيه الجانب المضيء في حياتها. فارقتها بناتها الواحدة تلو الأخرى. "عانس" ثم "الهادية" ثم "جميلة" ثم "حسناء" ثم "سعيدة" فقالت" تلك سنّة الحياة وذاك قدرهنّ وما اطمأنّت نفسي إلا بزواجهن". سعدت فذاك مآل كل أنثى "المرأة لها رجل أو قبر". ولكنّ فراقها للأرض وإن اقترب ولم يحن فإنّه ينهي رحلة العمر. ظنّتها محطّتها الأخيرة في الحياة. وطنها الذي ستسكن فيه جسدا وروحا الملجأ الذي ينسيها غربة النّفس وشرّ النّفوس. ما عساها تفعل؟ تبحث عن ملاذ جديد في هذا العمر؟ يقولون" الزّمن غدّار" ونسوا أن ابن آدم أكثر غدرا وخيانة يقولون العمر"أيّام معدودة" ، "العمر لحظة". و نسوا كيف يمرّ في شقاء.

منذ الصّباح الباكر وهي أسيرة لذكرياتها تطوّح بها شمالا وجنوبا. غربا وشرقا. تسير بها في درب طويل طويل. لا حدود له. لا تعرف أين ستكون نهايته. أما آن لها أن ترتاح ؟ ألم تحمل من أثقال الأيّام ما يهدّ الجبال؟ أمازال في العمر بقيّة؟ أم تراه حزنا وجد له في نفسها خير الأوطان فسكن وطاب له المقام.

عندما رفضت "حسناء" بيع الأرض من أجل أمّها فالجميع يعلم جيّدا مدى تعلّقها بها وحبّها لها قال "البشير" ثائرا غاضبا: "ما سألتكنّ إبداء الرّأي. أنا صاحب القرار وهذه أرضي وسأبيعها شئتنّ أم أبيتنّ ". الآن أدركت لمّا كان جل ما تتمنّاه أن تحمي بناتها من ذل النّاس ومن غدر الزمان ومن عار محتمل ويُقال لهنّ "رجل" كان هو في المقابل يطمح ويطمع في أخذ الأرض... منذ مات "عبد الله" وهو ينوي أن تكون من نصيبه وحده. فعلت الكثير لأجله ولم تنتظر مقابلا ولا ثناء. لكن لم يدر في خلدها ولا وضعت في الحسبان نكرانا للجميل وعقابا على إذعانها واستسلامها. ومن جلادها؟ "البشير" الذي فضّلته على ابنها الذي حملته وفارقته طفلا لا حول له ولا قوّة مثل يتيم يبحث عن حضن يرأف به هنا وهناك. وفضّلته على أخواته الضّعيفات اللاّتي جعلت منهنّ خادمات له. خاصّة "جميلة" التي عانت

الكثير من زوجته ومن غرورها وتسلّطها ولولا زواجها لكانت الآن تواصل خدمته هو وعائلته ولواصلت تذوّق العلقم منهم.
صدق "بوراوي" في ذلك الزّمن البعيد البعيد عندما أخذ كفّها الصّغيرة بين يديه وقال لها منذرا: " ستعيشين كثيرا وستلقين في الكبر غدرا عظيما يا فتاة. لن يرحمك أحد إلا هو الجبّار العظيم". تذكّر عندما كانت طفلة. لا تدري كم كان لها من العمر. علّها تسع سنوات. علّها عشر سنوات. ربّما أكثر وربّما أقلّ... كان من حين لآخر يقبل عليهم بائع متجوّل لا يمكن أن تنسى اسمه "بوراوي". لا يعرفون عنه شيئا سوى أنّه من إحدى القرى الساحليّة. له حمار يطلق عليه اسم "أبو صابر". يحمل عليه حملا ثقيلا. زبّيل فيه ما تشتهيه العين في ذلك المكان والزّمان وما يثير كلّ امرأة وكلّ فتاة وكلّ طفلة من حلوى ومن أدوات زينة ومن ملابس داخليّة ملوّنة ومن حنّاء ومن سواك ولبان. يبيع مقابل ملاليم أو قمح. كنّ ينتظرن زيارته بفارغ الصّبر. يمتعهنّ بحكاياته عن البحر الأزرق الممتدّ عن صيد السّمك وعن أخبار البلاد من شمالها إلى جنوبها. يتحلّقن حوله. يطُفن به ويسألنه عن عوالم أخرى عن حيوات مثل الخيال وعن أخبار عجيبة غريبة وعن عادات لا تشبه عاداتهم وكلمات ما تفوّهوا بها. و تتعالى أصواتهنّ. كل تريد أن يتنبّأ لها بقادم الأيّام ويمتعها بحلو الكلام. إلا هي كانت تخجل ويوم تحدّت حياءها وتركت حشمتها قليلا. و امتدّت كفّها وليتها ما تجرّأت ولا مدّت هذه الكفّ قال ما قاله وظنّت أنّها نسيت ذلك وطوته السّنون. وهاهي تذكر قوله الآن.
أين مقامك يا "بوراوي" أتراك من المغادرين للحياة أم تراك من المقيمين فيها؟ أمازلت تقرأ الكفوف وتجول بين القرى أم غدرك أنت أيضا الزّمن وما طرأ من تحوّلات. لم تعد النّسوة في حاجة إلى ما تبيعه ولا في حاجة إلى ما تراه في الكفوف " العين يا "بوراوي" أصبحت ترى الكثير والغريب. فما عادت بها حاجة إلى أمثالك. أصبحنا يا "بوراوي " في زمن العجائب والبدع. زمن غريب عنّي وعنك. إنّه ليس بزمننا ولا إليه ننتمي " .

وابنها " نصّر" منذ شهور لم يزرها. تشعر بشوق نحوه كبير. تعوّدت على غيباته الطّويلة مذ فارقته صبيّا. ماذا لو أصرّت بعد طلاقها على أن تعيش مع ابنها ولأجله؟ ماذا لو رفضت الزّواج؟ لا إجابات ولا جدوى من

الافتراض. إنّه "المكتوب" وهي تؤمن أن ما حدث وما عاشته قدرها وإن كان مؤلما فلا خيار لديها. لم يكن بيدها يوما أن تختار. ولا فكّرت أن من حقّها أن تختار. ماذا لو اختارت الآن؟؟؟؟؟؟

الفصل الثّاني :
"نصّر"

أفاق من نومه مذعورا. كانت أمّه تناديه في الحلم. تلوذ به من شيء ما. لقد سمعها تناديه " يا "نصّر". أين أراضيك؟ أم أن أراضيك بعيدة .. آه ابني ناء تحول بيني وبينه صحار وجبال... الغربة أخذت منّي ومنك. فبأيّ الدّيار تهت منّي وبأيّ أرض حططت رحالك؟".انزعج. أتراه خطب ما ألمّ به. لقد أخذه الشّوق إليها. هاهو في السّتّين من عمره. سنوات قضاها وحنينه لأمّه كغصّة في القلب .

كان الفجر يرسل نسمات صيفيّة وينبئ بحرارة قادمة وأشعّة شمس ستكون حارقة. تلك حال الصّيف. لم تعد به رغبة في النّوم. شعر بحاجة للخروج ولبعض الخلوة قبل رحلة الرّعي وقبل أن يشتدّ القيظ ويلازم منزله. زوجته نائمة فلينطلق نحو مكانه المفضّل. هناك بين الصّخور. مكان ألفه منذ الصّبا. وأصبح الجميع يعرف أنّه خاصّ به له وحده. لا أحد يجرؤ على البقاء فيه. وهدة.. يبدو أنّ السّيول التي تتدفّق من أعلى الجبل قد حفرتها حفرا عميقا ويتجدّد حفرها كلّما هطلت الأمطار. لم يفعل فيها الزّمن الكثير وكأنّه رأف به وبتعلّقه بهذا المكان الذي كلّما ضاق به الحال كان ملاذا له. كان موضع أسراره وموطن أحزانه. شهد كل مراحل حياته واحتضنه طفلا ثم شابّا ثم كهلا ومازال سيحتضنه إن كان في العمر سنوات أخرى. عمر حط رحاله في أماكن مختلفة وما وجد مستقرّا لروحه إلا هنا .

جلس فوق التّراب. مازال منعشا من أثر برودة اللّيل الذي بدأ ظلامه يتبدّد و يتلاشى تاركا ضوء النّهار ينشر بعض نوره على الكون. حمرة الشّمس في سواد اللّيل. منظر أفق الأرض بدأ بالظّهور. الظّلام الدّامس شرع في الانقشاع شيئا فشيئا وظهرت معالم الأرض جليّة واضحة فوق الأفق الشرقيّ. تحوّل اللّون الأسود إلى الأحمر والأصفر والبرتقاليّ. لحظة فاصلة تذكّره دائما بالموت والحياة. اللّيل دائما يشعره بالعدم. بفناء لا حدود له ويأتي الفجر فتلوح بشائر الحياة التي ينتظرها بفارغ الصّبر. كم خاض

لأجل هذه الحياة الكثير من الأزمات وكم ظنّ أنّها تخلّت عنه. وها قد منحته الكثير.

وهاهي الشّمس تعد بيوم جديد. لطالما انتظر الجديد رغم قسوة الحياة. تذكّر أوّل مرّة اكتشف هذا المكان أو الملاذ كما يسمّيه هو. كان طفلا صغيرا في السّادسة من عمره هزيلا لا ترتسم على وجهه ملامح الطّفولة بقدر ما رسم الزّمن عليه قصّة يتم وفراق. ليس اليتيم فقط من مات أبواه. اليتيم كلّ من فارق أمّه. ربّما الموت أرحم فهو قضاء الله أمّا فراق لقسوة بني الإنسان فإنّه ضيم لا يحسّه إلا الذي كابده. هنا في هذه الوهدة بكى بكاء مرّا. وعلا نشيجه. كان قد تغلّب على فراقه لأمّه على الأقلّ أمام الأعين الفضوليّة والألسنة السّليطة التي لا تتوانى عن سؤاله "ألا تزورك أمّك؟، أنسيتك؟ " نسوة يردّدن على مسامعه: " يبدو أنّها سعيدة بحياتها الجديدة. فماذا ستفعل بابنها؟" أحدهم نظر إليه هازئا شامتا عندما رآه في هذا المكان "أمّك بين أحضان رجل جديد وأنت بين أحضان الصّخور".

كان صغيرا. كان كثيرا ما يلمحها تغالب دمعها خفية. كانت تحضنه طويلا إلى حدّ يشعر بالاختناق. لم يكن يدرك مابها ولكنّه كان يشعر بحبّها له بلهفتها لاحتضانه وتقبيله. جاءت به إلى عائلتها وهو ابن ثلاث أو أربع سنوات مطلّقة منكسرة. فأصبح ينادي جدّه "أبي" خاصّة وأنّه يحبّه ويعطف عليه دائما. ابتسم عندما تذكّر كيف كان يتسلّل من حضن أمّه لينام إلى جانبه. وإن وجده مستيقظا رجاه أن يحدّثه عن أمجاد الرّجال وعن بطولات لا تنتهي. وكان خياله الصّغير يثب به من ملحمة إلى أخرى ومن انتصار إلى آخر. كان يرسم في مخيّلته صورا لرجال أشدّاء "أبو زيد الهلالي" بطل شجاع شجاعة تتجاوز الطّاقة البشريّة وتعتبر من الخوارق رجل يحسن التّنكر في أيّ زيّ ويحترف أيّ مهنة ويتحدّث بأيّ لغة. ألم يقل العرب "سكّة أبي زيد كلّها مسالك". آه لو كان مثل "أبي زيد" لاجتاز كل الصّعاب والمحن. كان جدّه خير القصّاصين وكان هو خير المستمعين وأفضل المنصتين. لا يحلو الحديث إلا معه.

وكانت مسامرات الشّيخ والطّفل تتعلّق غالبا بالأساطير وبالأمجاد وكأنّهم يسدّون بعض نقائص حياتهم بالخيال .

يركب "نصّر" أجنحة الخيال ويحلم وينسى أو يتناسى لبعض الوقت غياب أمّه. و كان الجدّ خير أنيس. كلاهما يتمتّع برفقة الآخر. الجدّ "أحمد" نفسه كان يجدها فرصة لتذكّر أمجاد أجداده وأصل عشيرته والأعمال الجليلة لأسلافه "رحمك الله يا جدّي "محمّد". ما عساي كنت أفعل دونك وأنا العصفور الذي قُصّت أجنحته. سنوات مرّت وذكراك عالقة بالرّوح وبالقلب. كنت خير أب لي".

أخذ عودا صغيرا وخط اسم جدّه. و نزلت بعض العبرات وكأنّها تروي الاسم وتروي ماضيا حافلا. لم يتعلّم من المدرسة إلا كتابة بعض الأسماء وبعض الجمل. و لم يحسن قراءة القرآن إلا بعد أن كبر أبناؤه وساعدوه على ذلك. كان يعشق سماع تلاوة السّور.

يذكر كيف طلب والده بعد زواجه أن يعيش معه وكان قد بلغ ستّ سنوات. وأعلم الجدّ أنّه يريده أن يدرس مثل أنداده. لم يستطع الجدّ الرّفض. إنّه أبوه وهو صاحب القرار. و شعر "نصّر" أنّه يعيش ألم الفراق للمرّة الثّانية. إنّه طفل فلم يضعون على كاهله كل هذه الأرزاء؟ ربّما كان صغيرا عندما رحلت أمّه لكنّ المشهد علق بذاكرته ولم يمّح رغم مرور السّنين. وقف يتطلّع إليها ورجل غريب كريه يقف إلى جانبها. ناجاها بكلماته المتعثّرة. بكى ظانّا أنّها مثل العادة سترقّ وستعطف لمجرد رؤية الدّموع في مآقيه. كان يحقّق ما يطلبه منها ويصل إلى مبتغاه بالدّموع وبالقبلات. وكانت لا تستطيع الرّفض. واليوم تشيح عنه بوجهها. يرى لمعانا في عينيها. دموع تنزل بصمت. أتراها تبكي لبكائه. تخبره بهدوء مصطنع وبداخلها نار متّقدة أنّها ذاهبة راحلة وصوتها ينشج وكلماتها متقطّعة... ما بالها أصبحت قاسية لامبالية؟ ما عهدها ترفض له طلبا ولا فارقته يوما ولو للحظات. إنّها تسهر عليه نائما أو يقظا وتغضب منه إن نام حذو جده وتركها وحيدة في الفراش. أمّا ذلك اليوم فإنّها تخبره عن رحيل طويل وعن غيبات لا تعرف لها نهاية. غيبات ستطول وتطول وتمتدّ على كامل العمر. تتوسّل إليه أن يطيع جدّه وجدّته. أن يكون رجلا. رجلا؟! ما معنى "رجلا"؟ إنّه ابن ثلاث سنوات. أربع ."أنا صغير لا أعرف كيف أكون رجلا. مازلت طفلا ". ويزداد بكاؤه وصراخه علّها تلين وتغيّر رأيها. و على وجه الرّجل الكريه

ترتسم علامات الضّجر والتململ. سمعهم ينادونه "عبد الله". من "عبد الله" هذا؟ من عساه يكون لتذهب معه أمّه؟

يوم حالك حزين لا يستطيع نسيانه. وكلّما حاول ذلك يئس. كثيرا ما حلم بذلك اليوم وأفاق والدّموع في عينيه. واقع تجسّد في شكل حلم أو كابوس لازمه طفلا وشابّا وكهلا. في إحدى المرّات سألته زوجته عن سرّ الدّموع في عينيه بعد أن أزعجه حلمه كالعادة. لم يخبرها. اختلق حكاية. إنّه سرّه جرحه وسيبقى طيّ الكتمان مادام في العمر بقيّة. ما الفائدة من الكلام؟ لا جدوى من ذلك.

كانت رائحة أمّه مختلفة يومها. رائحة عطر وبخور. كان لباسها جديدا وألوانه زاهية. وكانت الحنّاء تخضّب يديها ورجليها. لقد تعوّد على رائحة الغنم وعلى رائحة الخبز ودخان الطّعام وعلى رائحة الشّيح والعرعار والإكليل تفوح منها مختلطة وتشكّل رائحة خاصّة بأمّه. كان دائما يشعر أنّها أطيب الرّوائح. كان اللّون الأسود رفيقها الدّائم وقد ألفه. رأى فيه الجمال والعطف. رأى فيه أمّه وحضنها الدّافئ. وذلك اليوم كره الألوان الزّاهية. كره لباسها الملوّن كره الحنّاء ورائحتها. إنّها امرأة أخرى. لم يرها من قبل... شعر بنفور تجاه الرّجل. وأحسّ أن لا جدوى من بكائه ومن توسّلاته. انطلق الجسد الصّغير يعدو بعيدا حافيا لا تهمّه الأشواك ولا حرارة الرّمال. يتعثّر. يكاد يسقط ويواصل عدوه دون تحديد وجهته إلى أين؟ إلى أين أيّها الصغير؟ لا يعرف. المهمّ أن يبتعد لا يريد رؤية المشهد القبيح مرّة أخرى .

تبعه جده. حمله على كتفيه. كان منهكا. يلهث. يبكي. ويعلو شهيقه. غنّى له. حكى له عن "ذياب بن غانم الهلالي" فارس وساحر لا يشقّ له غبار... لم يكترث. لأوّل مرّة لا يعنيه ذياب ولا أبو زيد ولا عنترة... لن يعيدوا له أمّه.

كان يبكي ويسأل جدّه متى تعود أمّه فيتجاهل الجدّ السّؤال بل الأسئلة. يطلب منه أن يذهب معه إلى المرعى البعيد ويعودان مع المساء. كان يريد أن يلقي بنفسه في حضن أمّه ويحدّثها كعادته عن صيده للعصافير عن لعبه مع الخروف الصّغير عن الأفعى التي قتلها جدّه. و يشطح خياله الطفوليّ ويحلّق بعيدا فيقصّ عليها أحداثا هو بطلها المغوار ما وقعت ولكنّه سيحدّث أمه بها

وسيثير اهتمامها. ستصدّقها... يصل إلى المكان الذي تعوّد أن يجد به أمّه جالسة فوق حصير وراء المنسج. يلوح وجهها من وراء الخيوط. و صوت " الخلالة" يرتفع وينخفض أثناء دقّ الخيوط وتظهر أسنانها الحادّة بين خيوط المنسج. ولكنّه خاو. لا أثر لها. تذكّر أنّه تركها تستعدّ للرّحيل. ندم لذهابه. لو بقي. لو توسّل أكثر. لوتشبّث بها لما رحلت... بكى... صرخ... توسّل... تورّمت العينان الصّغيرتان من كثرة البكاء. ساعات مضت. ليل طويل انقضى. شمس أشرقت وشمس غربت وأيّام مرّت. و كان عليه أن يتعوّد على الفراق. وانقضت ثلاث سنوات أخرى من عمره في بيت جدّه .

كان يشعر باليتم كلّما رأى طفلا يمسك بيد أمّه. يلتصق بها التصاقا. يسكن إلى حضنها. ينعم بوجودها معه. فيأخذه الشّوق إليها ويزداد حنينه كلّما زارتهم وكانت زياراتها على عجل سريعة. لا يكاد يشبع منها ويرتوي من حنانها حتى تعلن الرّحيل. بل الأصحّ يعلن زوجها الرّحيل.

في إحدى المرّات وكان عمره خمس سنوات تقريبا رفض أن يتركها ترحل. مل بُعدها وظنّ أنّه قادر على استبقائها وعلى جعلها تعدل عن الرّحيل. ارتفع بكاؤه وصراخه حدّ النّشيج. أمسك ملابسها بقوّة، بكل ما أوتي من قوّة رافضا أن تغادر. وبكت معه الأمّ المسكينة. و كانت تحمل ابنتها الكبيرة "عانس" رضيعة بين يديها. هذه المرّة عليه أن ينتصر. أن يأتي بفعل خارق ويجعل أمّه تبقى معه. عليه أن يكون شجاعا ويتجرّأ على قوانينهم وخاصّة نواميس "عبد الله" زوج "بيّة". ويعلن العصيان لينعم بوجود أمّه وتعود الأيّام الجميلة. أيّام لا يفترق عنها مهما حصل. سيكون البطل الذي لا يشقّ له غبار.

أشفق عليه الجميع وشعر "عبد الله" بالحرج. سيدعوه للذهاب معهم. هدّأ من روعه. وكان "نصّر" كارها له ولكن عندما عرض عليه مرافقتهم شعر لأوّل مرّة ببعض الحبّ لهذا الرّجل. وابتسمت الأمّ. سيذهب معها. هي أيضا لم تشبع من ابنها. كانت الزّيارة ككل الزّيارات قصيرة. ليته يدعوه للعيش معهم. ستتغيّر حياتها. لن يراودها القلق والخوف على ابنها. سيؤنس وحدتها ويكون خير رفيق لأخته. و بدأت ترسم أحلاما جميلة تجمعها مع ابنها. يكفيهما بعدا وفرقة. أم تراها دعوة لبضعة أيّام لا غير؟

انطلق معهم من "المنسيّة" إلى "قُطّيس". كان سعيدا سعادة طفل بوجود أمه وسعادة اكتشاف عالم جديد. و زاد سروره عندما التقى ب"البشير". لعبا مع بعضهما "الغمّيضة". تسابقا. وثبا هنا وهناك. تبارزا بالعصيّ. ولأن "نصّر" هو الأكبر فقد انتصر وأصيب "البشير" إصابة خفيفة. علا صراخه. لم يتعوّد أن يهزم ولا أن يكون رقم اثنين. أسرعت "بيّة" تهدّئ من روعه خائفة على نفسها وعلى ابنها خاصّة. الابن المدلّل أصيب. ولن يغفر لها الأب ذلك ولا لابنها أيضا. ربّاه ما عساها تفعل أو تقول؟ يذكر كيف كان يرتعش من الخوف أو من الغضب فالبشير قد بالغ وأفرط في البكاء دون سبب. كان يريد والده. وحضر الأب مسرعا وقد بلغه صوت ابنه. غضب.

استشاط غضبا. يذكر كيف كانت عيناه تلمعان شررا وهو ينظر إليه شزرا. اختفى "نصّر" وراء أمّه وعاوده كرهه لزوجها.

توسّلت "بيّة": "إنّهما طفلان يلعبان. لم يكن يقصد إيذاءه". "كانت غلطة. ما كان يجب إحضاره. من الغد سأحمله إلى أبيك". كره ذلّها واستكانتها. كره توسّلاتها التي جعلته مذنبا دون ذنب اقترفه ومجرما دون جرم ارتكبه. اكتشف ما تعيشه من إذلال وظلم رغم صغر سنّه. إن كان "البشير" ابنه فهو ابنها وأحقّ منه بالتّواجد مع أمّه لولا قسوة الحياة. يذكر أنّه هو أيضا كان ينتظر بفارغ الصّبر عودته لجدّه، لجدّته لمن يحبّونه. هناك في "المنسيّة". أمّا هذا المكان فلا علاقة له به ولا بأهله. أمّا أمّه فلتأت معه. ما عساها تفعل مع هؤلاء الغرباء ولتأخذ معها "عانس" "أمّاه فلتعودي إلى منزل جدّي "محمّد". هناك لا أحد يؤذينا ولا أحد ينهرك ويؤنّبك ويشتمك. كلّهم يحبّوننا أمّا هنا فلا مكان لنا بينهم ". وتصمت الأمّ. ليس أمامها إلا الخرس. تقبّله. تحضنه وتعده بزيارة قريبة وبطول البقاء. وبعودته معها إلى "قْطّيس" إن شاء". "لن أعود. هذا المكان بغيض كريه. و النّاس فيه مثل كلبنا الذي أصابه داء الكلب فأصبح يعضّ كل من يقترب منه". تضحك "بيّة" لتشبيهه وهي تغالب دموعها. يومها أدركت أنّه كبر قبل الأوان وأدرك هو أنّه تعلّم درسا قاسيا. ورحل "نصّر". عاد إلى جدّه وجدّته ولم يفكّر في الذهاب مع أمّه أو زيارتها مرّة أخرى إلا بعد أن كبر وعندما تطلّب الأمر ذلك وعند الضّرورة مثل المرض أو الموت.

ذكرى بغيضة إلى نفسه. كشفت له كم في النّفوس من قبح. واعتبرها درسا من ضمن دروس الحياة التي جعلت منه رجلا يسعى للاعتماد على نفسه لا غير. اطمأن إلى حياته مع عائلة جده وتعوّد على فراق أمّه. و هاهو والده يريد اجتثاثه بدعوى الدّراسة "من قال له أنّني أرغب في الدّراسة؟ من أخبره أنّني أفكّر في المدرسة وفي الذهاب إليها. فليذهب هو. وإن كان لابدّ من التعلّم فجدّي "محمّد" يعلّمني الكثير ويحدّثني بالجميل وبالمثير ويملأ عقلي بحكايات مشوّقة ويملأ روحي بما يمتعني. فلم لا أبقى معكما؟!" تخبره جدته " مبروكة" "إنّه والدك. وعليك أن تطيعه وتضعن له وأن تفعل ما يريده. لم يمنعك من زيارتنا. هناك في "عْليم" أيضا أهلك وأرضك وموطن أجدادك.

لا تصعّب علينا الأمر. ما باليد حيلة. ووالدك صعب المراس. قد تلاقي منه بعض الجفاء. ولكنّه يحبّك. وما قراره دخولك المدرسة إلا حرصا منه على مصلحتك وعلى أن تكون أفضل". ثم تبتسم الجدّة وتحضنه قائلة: " ألا تريد أن تكون معلّما أو مؤدّبا في الجامع ؟ ولم لا طبيبا أو مهندسا فتفخر بك أمّك". تنهّد بحرقة "أمّي... و أين هي أمّي؟"

ما باله أسير الذكريات هذا الصّباح. حلم هيّج أحزانه وحرّك ذاكرته. وجع ذكريات ظنّها تلاشت مع مرور الزّمن. وهاهي تطفو على السّطح وتحاصره هذا اليوم تحديدا وبعد كلّ هذا العمر. بدأت الشّمس ترسل أشعّتها الصّباحيّة وتتسلّل مبدّدة بقايا السّواد. في ذلك اليوم أيضا من سنة **1960**. ربّما يوم **15** سبتمبر. لا يذكر. أمسك أبوه بيده بعد أن جهّزته زوجة أبيه وألبسته لباسا جديدا وسعت أن يكون زوجها راضيا. على يقين أنّه أحسن الاختيار هذه المرّة لا كزواجه الأوّل. وانطلقا مع شروق الشّمس. المدرسة بعيدة. امتطيا حمارا. وكلّما أحسّا بتعبه كان الأب يمشي على رجليه ويترك ابنه راكبا خوف أن يصيب غبار الطّريق ثيابه الجديدة أو أن يضرّ الحصى والحجر بنعله. لم يكن متحمّسا ولا به رغبة للذهاب. ليته يغيّر الوجهة ويعدل عن قراره. كان يوصيه بطاعة معلّمه وبالحفاظ على أدواته التي أنفق عليها الكثير وباع من أجل شرائها النّعجة "الصّردي". "العلم جميل وطريقك للحصول على عمل عندما تكبر. لا تكن جاهلا مثلي. أريدهم أن يقولوا "ابن الفاهم" أصبح ذو شأن". "ما بال أبيه؟ اسمه الفاهم ولا يفهم شيئا. لا يعرف أنّه لا يرغب في المدرسة. لا يريدها ولا حلم بها ولا شأن له بها. إنّها عذاب جديد يضاف إلى سلسلة عذاباته. إن الذهاب إليها يشقّ على نفسه وعلى روحه الصّغيرة التّائهة الباحثة عن أمّ نائية بعيدة عنه، عن جدّ يشعر أنّه ينتظره مشتاقا. يحنّ إليه وإلى رفقته وإلى ليالي سمرهما وأحاديثهما التي لا تنتهي وكأن لا سنين تفصل بين سنوات عمريهما، عن جدّة تركها تنسج له برنسا وبريّا صغيرا. بقيت الكثير وهي تجمع له الوبر وتنتقيه من صغار الجمال. قامت بتنقيته جيّدا وضربه وتحليله أكثر من مرّة. غزلته بحبّ وتفان على شكل خيوط رقيقة وحبكته. كانت تعالج الخيوط وراء المنسج وتغنّي :

ع البرنوس آه يا يمّه

ع البرنوس
زيد البلغه مع الكبّوس
آه يا يمّه

وعده جدّه بعد أن تتمّ الجدّة منسوج البرنوس ويحمله إلى الخيّاط ليخيطه باليد لا بالآلة ليكون أفضل وأجود بشراء "البلغة" التي يريدها وكما يشتهيها.
الآن يريد أمّه. يريد جدّه. يريد جدّته. يريد برنوسه الوبريّ الجديد. سيضعه على كتفيه ويتباهى به أمام الرّعاة. اشتاق إلى خروفه ليلعب معه. لا يريد المدرسة ولن يريدها أبدا. والده "الفاهم" هو من يريدها.
الخروف؟ الغنم؟
تذكّر أن أغنامه وخرفانه في انتظاره لينطلق معها هذا الصّباح في رحلة الرّعي. غادر وهدته واتّجه نحو منزله. كانت زوجته قد أفاقت من نومها وجهّزت له الطّعام. لم ترغب في سؤاله. إنّه يريد ذلك وإن تجرّأت وسألت سيغضب وقد يتجاهلها. فلتدعه وشأنه. انطلق نحو المرعى. يتبعه قطيعه وحمل جميل. يثب هنا وهناك. صغيرا رشيقا. يحلم بوجبة من الأعشاب شهيّة، بحليب أمّه قبل أن يأخذوه ويجفّ الضّرع. ولعل حاله مثله فيحرم من أمّه. فلينعمْ ببعض الانطلاق ومصاحبة أمّه قبل تقييده في الحظيرة.

هو أيضا في زمن بعيد منذ أكثر من خمسين سنة جعلوه أسير مدرسة بعيدة. يتّجه نحوها باكرا ليبقى فيها كامل اليوم. مدرسة صغيرة تتكوّن من قسمين وإدارة عبارة عن غرفة صغيرة. ولها سور كبير. كان معلّمه لطيفا. وكان يصول ويجول في القسم محدّثا إيّاهم عن العلم وعن فوائده عن غد أفضل بفضل المدارس عن قضاء على الجهل وبناء تونس جديدة بعد الاستقلال وعن دورهم في هذا البناء. كثيرا ما ألحّ عليه سؤال ولم يجرؤ أن يبوح به لمعلّمه خجلا وخوفا "هل يبني تونس فقط المتعلّمون؟ ألا دور فيها لأمّيّ؟!" وبقي السّؤال شاغلا له محيّرا. كان يشجّعهم ويخبرهم بإيمانه بقدراتهم رغم الفقر ورغم الصّعوبات. كان يحبّه ويحترمه. لكنّه لم يحبّ مقاعد الدّراسة والانتباه إلى الدّروس ولا تكليفه بالحفظ أو بأيّ عمل مدرسيّ. لا يرغب في هذه الحياة. حياته هناك مع جدّه في " المنسيّة". وأحسّ المعلّم أن به نفورا وأنّه أثناء الدّرس يكون حاضرا بجسده غائب

الرّوح. فتوخّى معه الحزم والشدّة سبيلا للإصلاح من شأنه. ولكن لا جدوى وكأن الطّفل اتّخذ قراره أن تراجع عن كره المدرسة. وزاد من كرهه لها زوجة أب متى كان والده في المنزل أحسنت إليه وعاملته خير معاملة. معاملة الأمّ لابنها. ومتى غاب انقلبت إلى حيّة تسعى لإيذائه علّه يغادر دون رجعة. فتيقّن أنّه إن غادر المدرسة وتركها فسيكون حينها خلاصه من هذا المكان بمن فيه وسيعود إلى جدّه. فكانت الوهدة ملاذه. فيها يبكي بصمت. لايكتم دموعه. يعلو نشيجه. و لايخاف لوم لائم. لا أحد يقول له "لا تبك. إنّك رجل". فليذرف الدّمع وحيدا فوحدته البلسم الشّافي. إليها يهرب من بشاعة واقعه ويحلم. يفرّ إلى عالم خياليّ يستجير به من دنياه. عالم فيه أمّه يعيش معها ما لا يعيشه. يأكل ممّا تطبخه يداها ما لم يأكله. يلبس ما نسجته له. تداعبه. تحنو عليه. يتحادثان. يخبرها كيف مرّ يومه وما أزعجه وما سرّه ماذا يشتهي وماذا يطلب. ينطلق معها يدها تضمّ يده نحو الوديان ونحو المراعي نحو شجرة السّدر تجمع معه النّبق. يحتفظ بالكثير منه ليتسلّى به في سمره مع جدّه وجدّته. و يعود. تصل رائحة الخبز إلى خياشيمه من بعيد مصحوبة برائحة الدّخان ويجدها تنفخ في الرّماد لتتمّ عملها بسرعة. يساعدها في ذلك ويتعفّر وجهه بالرّماد ويضحكان. تقول له: "أصبحت مثل برق اللّيل يقال أنّه شديد السّواد". فيقول لها ببراءة: "جدّي "أحمد" كذلك أسود". تتظاهر بالغضب وتنهره: "جدّك أسمر لا أسود. الفائدة ليست في اللّون بل في الأفعال. كُن رجلا مثل جدّك". ثم يأخذ منه التّعب مأخذا. يغفو على ركبتيها ويحلم بعصافير تحلّق بفرس ينقصه فارس فيمتطيه وينطلق به مثل خاله"علي". يشرد به في البراري وفي الجبال يبحث عن صيد ثمين عن متعة التّرحال. يسابق العصافير. يتحدّاها. تتحدّاه وتحلّق عاليا. يسبح فرسه ولا ينقطع عدوه... لا يعلم إلى أين؟ المهمّ أن لا تكون فيه زوجة أبيه ولا زوج أمّه ولا مدرسة فيه. و ما ضرّ لو كان مكانا للأحبّة لا غير. هل ستتوقّف الحياة وتنتهي؟ كم حلم. أحلام كثيرة، أحلام طفل ولكن ما تحقّق منها شيء. يكفيه أنّها منحته بعض الأحاسيس الجميلة في زمن الوحشة والغياب زمن الوحدة والفراق.

شعر أنّه نأى بقطيعه. ستكون رحلة العودة من الرّعي شاقّة فالحرارة في ارتفاع. منذ الصّبا يعشق النّاي وكأنّه يلقي بأوجاعه بعيدا بعيدا. أوجاع

كبيرة وأحلام كثيرة. يذكر أنّه كلّما شعر بالهموم تغزو قلبه الصّغير كان يحلّق بخياله ويجنح إلى عوالم جميلة. كان ذلك سبيله الوحيد لينتصر على واقعه.

عندما كان يزداد كرهه للمدرسة. كان يجلس في آخر القسم يكاد يختفي عن نظر معلّمه ويحلم بمغامرة برحيل. إلى أين أيّها الطّفل الصّغير؟ يأخذه خياله إلى مدن سمع عنها إلى بلدان بعيدة يهاجرون نحوها ويركبون الخطر إلى صحار ممتدّة تغري بالمغامرة وإلى بحار ما رآها... و ينهره المعلم أحيانا وأحيانا أخرى ينصحه. يسعى إلى ترغيبه في العلم يعده بمستقبل جميل بعمل كريم بمكانة مرموقة بحياة أفضل. وكان ينصت باهتمام وباحترام. إنّه يحبّ معلّمه كثيرا ولكن المدرسة ؟! في إحدى المرّات بلغ الحماس بالمعلّم حدّا كبيرا " بنيّ. أعلم أنّك تعاني من بعد أمّك وأنّك عزوف عن الدّراسة تُدفع إليها دفعا ولولا إصرار والدك لكنت انقطعت منذ زمن. حاولْ ربّما حالفك الحظّ و اجتهادك فتنجح. نجاحك سيغيّر نظرتك للمدرسة. إنّها سبيلك الوحيد للخروج من الجهل ولتنير درب حياتك. طفولتي تشبه كثيرا طفولتك وبفضل عزمي وإصراري تغلّبت على الجهل وعلى الفقر. بفضل الدّراسة. جرّب ربّما يكون حالك مثلي ولم لا أفضل منّي". يومها تغلّب على خجله ولا يعرف من أين أتته كل تلك الجرأة والفصاحة ليقول بثبات "سيّدي. ما رغبت يوما في الدّراسة ولا سكنت روحي إلى المدرسة. أرى جدرانها تطوّقني مثل سجن. هي عندي موطن للملل والضّجر. اعذرني على صراحتي وإن وجدتها وقاحة مني فسامحني لأن لك في قلبي مكانة مثل أب لي وربّما خيرا منه. يكفني أنّك تحاورني وتنصت إليّ وتنصحني وتأخذ من وقتك الكثير لتعطف عليّ. أعلم جيّدا أنّك تريد لي الأفضل. قد أكون غبيّا لا علاقة لي بالعلم لا من قريب ولا من بعيد. ولكنّك قريب من روحي ومن نفسي. وما هوّن عليّ سنوات الدّراسة الأربعة إلاّ وجودك وعطفك. كنت كريم النّفس كرما لم آلفه في الكثيرين وكنتُ كشوكة تؤلم. أرهقتك وما جنيت من تعبك إلا حبّا واعترافا بالجميل. سيّدي أظنّني ممّن يُرتجى منهم خيرا في هذه المدرسة. أبي لن يقتنع بذلك فعلّك أنت تقتنع بما أقول فتكون سندا لي في جعله يسلّم بانقطاعي عنها. سأعمل راعيا لأكسب قوتي. هذا ما أجيده الآن وربّما عندما أكبر أتعلّم ما يفيدني أكثر. سامحني سيدي. ما رغبت يوما أن

أخيّب ظنّك بي. ربّما أكون صغير السنّ ولكنّي تعلّمت الكثير وأريد أن أعتمد على نفسي. بل إنّه آن الأوان لأكون رجلا". كاد المعلّم أن يحضنه. إنّه صغير ولكن في كلامه بعض الصّواب. إنّه طفل فكيف له أن يرزح تحت وطأة كل هذه الهموم. يبدو أنّ المدرسة ما زادته إلاّ عذابا ولكنّ رسالته تحتّم عليه أن لا ييأس من أيّ تلميذ مهما زادت عثراته ومهما تواترت خيباته. عليه أن يزرع في نفسه الأمل ولو كان كاذبا.

رفض "الفاهم" أن ينقطع عن المدرسة رغم المحاولات الكثيرة لزوجة أبيه طمعا في توفير بعض المال الذي تتطلّبه الدّراسة كما أن هذا الانقطاع قد يجعل "نصّر" يرحل عنهم ويغادرهم فهي ما أحبّته يوما ولا ارتاحت لوجوده بينهم. كلّما جهّزت طعاما قارن بينه وبين طعام أمّه. كلّما تذمّرت قارن بين شكواها وطاعة أمّه. كلّما غنّت أو رقصت مع بعض رفيقاتها قارن بين تهوّرها واتّزان أمّه... فلم لا يدعها وشأنها. فليرحل إلى أمّه. المهمّ أن يفارقها هي وبناتها. والده يقول أنهنّ يحتجن إلى أخ خاصّة وأنّه أكبر منهنّ وهي تعده بإنجاب الذكر الذي يريده. يقول أنّه يحتاجه ليساعده في الحرث وفي الزّرع وفي الرّعي. تخبره أنّها قادرة على المساعدة. يشعر أنّها لا تريد "نصّر" بينهم ولكنّه يريده. إنّه ابنه ولده الوحيد. أيعيش بعيدا عنه؟! ألا يكفي أنّه حُرم منه وهو صغير. لو تعلم كم بكى الأيّام واللّيالي من شدّة شوقه إليه. و ماذا سيقول عنه أهل "عْليم" ليس رجلا. تقوده امرأة. لا عاشت ولا كانت. ولو كانت زوجته وأمّ بناته ولو كان يحبّها إن كانت ستجعله مضغة بين الأفواه وأضحوكة في مجالس النّساء والرجال.

وخافت الزّوجة عندما أدركت ما يفكّر فيه.أصابها فزع شديد. ماذا لو قرّر أن يطلّقها مثل زوجته الأولى. تلك كانت محظوظة وتزوّجت من جديد. أمّا هي فمن سيرضى بأم لأربع بنات أم سيقبلها والدها بعد أن تزوّج وهو الشّيخ ابن السّتين بزوجة شابّة. إنّه يعيش شبابه من جديد. يجدّد العمر الذي تولّى فلا حاجة له بابنته وبناتها. و تيقّنت أنّها قد أخطأت وربّما تكون قد جنت على نفسها .

تغيّرت معاملتها ل"نصّر" وأصبحت تعامله كأمّ حنون. فاجأه حنانها وعطفها وكان في حضور "الفاهم" وفي غيابه. أشعره ذلك ببعض الامتنان خاصّة

وأنّه يحبّ أخواته كثيرا ونسي ما بدر منها من إساءات. حدّث والده عن قراره ترك المدرسة. شتمه. لعنه "متى كبرت لتتخذ قرارا. أنا من يقرّر. لابدّ أنّها أمّك من شجّعتك على ترك الدّراسة لتعمل راعيا عند زوجها".
لماذا لا يذكر أمّه إلاّ متّهما إيّاها ولاعنا لها. لو يعلم كم بكت المسكينة وكم توسّلت إليه عندما قابلته ليواصل الدّراسة. أغرته ببعض ملاليم تملكها مدّها بها جدّه. وعدته بمستقبل جميل. بلقاءات كثيرة. فما وجدت منه أذنا صاغية. أغرته بالبقاء معه أيّاما وأيّاما في منزل جدّه فما أعار قولها اهتماما. صمّ أذنيه عن كل محاولاتها التي باءت بالفشل. وعادت إلى زوجها. يدرك رغم صغر سنّه أنّها تكبّدت الكثير من أجل أن تأتي وتسعى لإقناعه ولكنّها لم تعدل عن قرار زواجها لأجله فلم يعدل هو عن قراره لأجل أيّ واحد منهم سواء أمّه أو أبيه. قبل مغادرتها سمعها تسرّ لجدّته: "أنا من جنيت عليه. لو بقيت معه وما تزوّجت لكان حاله أفضل. لعن الله الزّواج. أربّي ابنه وأسهر على راحته فأراه يتعلّم وينجح وأرى ابني إلى الخيبة والفشل يسير. ماذا أضاف إليّ هذا الزواج إلاّ العناء والمعاناة وفراق ابني. جعلته يتيما منذ نعومة أظافره وجعلت ابنه أميرا وأنجبت له الخادمات ويا ليته يرضى هو وابنه. لا يعجبهما العجب. حتّى بناتي رفض أن اصطحبهنّ معي. قال لي " اذهبي وحدك إلى أهلك. مكانهنّ هنا. ليتني كنت أستطيع إحضارهنّ دون عودة إلى ذلك المكان وإلى أولئك الغرباء. "البشير" أحببته مثل ابني. دلّلته ولا أجد منه إلاّ إفراطا في الدّلال وفي تعذيب أخواته بطرق مختلفة. آه يا أمّي". يذكر كم تألّم لما قالته كلماتها حُفرت في ذاكرته وخطّت جرحا ووجعا لازمه السّنين الطّوال. يومها فقط أدرك أنّه ظلمها عندما فكّر أنّها نسيته. يومها فقط أدرك أنّ معاناتها أشدّ من معاناته وأن وجعها يفوق وجعه.

وكان عنيدا قال عنه "الفاهم":" لقد حرن مثل دابّة. فامتنع عن الذهاب وعن السّير في طريق العلم وبناء مستقبل أفضل".
يذكر كيف ودّع المدرسة غير آسف. لم يكن يعنيه لا لوم ولا تقريع ولا حتى الضّرب والشّتم. همّه الوحيد أنّه تحرّر من أغلالها ومن سخريّة رفاقه في القسم منه ومن القطيعة بينه وبين الدّروس. فليسلك طريقا يختاره وإن كان طفلا. ألم يتركاه في متاهات الحياة واختار كل منهما حياة جديدة؟

قالوا "تلك طبيعة الحياة" "تلك سنّة الحياة" "قضاء وقدر" "مكتوب على الجبين". ربّما كتب هو أيضا بعضا من قدره واختار دربا يحدّد مصيره .

عمل راعيا. كان الكثير من الأطفال رعاة وكانوا يتقنون عملهم. ينطلقون بين خبايا الجبل. صخوره مغاوره وديانه. وكان يفعل مثلهم. يذكر كيف كان يتملّكه إحساس عذب بالحرّية. ألهذا الحدّ كانت المدرسة في ذلك الزّمن البعيد قيدا له؟ ابتسم وقد عاودته الذكرى. ذكرى طفل تجاوز العاشرة مثل كلب "السلوقي". يقفز من هنا ومن هناك. ينعم باكتشافات بسيطة ولكنّها جديدة ومثيرة بالنّسبة إليه.

لم يكن الرّعي صحبة الفتيان مثل الرّعي صحبة جده. عالمان متشابهان مختلفان. تعلّم منهم كلاما بذيئا. كلاما كشف له تحرّرهم من قيد الأخلاق الذي يتحلّون به أحيانا أمام النّاس. كلاما يكشفون به عن رغباتهم الدّفينة. شهواتهم لعالم الجنس ورغبتهم في الأنثى. اشتهاؤها اشتهاء شبقيّا لا يكاد يغيب عن مجالسهم. أحاديثهم المثيرة وحكاياتهم عن النّساء كانت تحرّك غرائزهم. هذا رأى ما رآه، وذاك سمع ما سمعه، والآخر حدّثوه، وآخر تسلّل ليسترق السّمع إلى ما يحدث في المضاجع... و كل يريد أن يدلي بدلوه ليقول الآخرون عنه أنّه أصبح رجلا وينصتوا إليه. جذبه عالم الرّعاة في البداية كان يريد اكتشافه. كان يتعلّم "الرّجولة"، الرّجولة؟ اتّخذت مفاهيم مختلفة عبر رحلة السّنين. و فكّر أن الرّجل يقضي عمرا بحاله ليثبت أنّه رجل بمفهوم المجتمع فماذا لو جرّب أن يكون رجلا بمفهومه هو؟ هل كانت المفاهيم ستختلف وتتباين أم ستلتقي؟ ثمّ ضجر من الفتيان ومل أحاديثهم. ما عادت تستهويه ولا أصبحت تثيره. كان يرغب في الابتعاد عنهم والبقاء فقط مع قطيعه خاصّة وأنّه ليس لديه ما سمع ولا ما رأى ولا ماحدّث به حتى يشاركهم جلساتهم وربّما سخروا منه. يكفيه سخريّة رفاقه بالمدرسة.هل سيفضحه "جهله" في كل مكان .

كان يعمل عند شيخ. رجل مسنّ ولكنّه خفيف الروح ممتع الحديث. روى له متحسّرا حكايته في ذلك الزّمن الغابر مع حبيبته وكيف كان يعزف لها بنايه. شطح خياله بعيدا خاصّة وأنّه كبر ومرّت بضعة سنوات. بدت له الحكاية ولا حكايات أبي زيد الهلالي. رجاه لو يعلّمه العزف. أحبّ الشيخ اهتمامه. فأهداه

النّاي الذي يذكّره بشبابه.كانت آلة موسيقيّة من القصب البرّيّ. علّمه كيف يمسكها بطريقة صحيحة. كانت للنّاي ستّة ثقوب تبتعد عن بعضها. علّمه أن ينفخ في طرف فتحتها العليا فتخرج صوتا يعدّله بتحريك أصابع يديه. في البداية ارتجفت الأصابع وأصابها خدر. ثم أخرج اللّحن الذي يريده. كان سريع التعلّم ورغبته كانت خير سبيل لنجاحه وإتقانه العزف في وقت قصير. بل إنّه تفوّق فيه على معلّمه الشّيخ. يومها فكّر لو رغب في الدّراسة كرغبته في العزف على النّاي لكان من النّاجحين فيها. فعلا كانت تنقصه الرّغبة.

إنّه يحتفظ به إلى حدّ الآن. صديقه ورفيقه. يحمله في يده أو يضعه تحت حزامه ليعزف ما يطيب له من الألحان فلا يشعر بالملل وهو يقضي السّاعات الطّوال في الرّعي في أماكن متفرّقة وكان أحيانا يستعملها عصا يسوق بها قطيعه أو يهشّه بها يذكر كيف عشق النّاي. كيف أصبح رفيق الدّرب وبلسما لحياته. فيه سكب عصارة روحه ليبوح للرّيح وللجبل وللوادي بأسرار نفسه ومكنونات قلبه. كان الصّديق الذي يلجأ إليه لحظات الصّفاء وأيّام الوجع. عزف لأخواته في "قْطّيس" ولأخواته في "عْليم" فوجد أذانا منصتة مستمتعة . وجد إعجابا من أمّه وحزنا في عينيها. ما عساه يكون ؟ ألفراقه للمدرسة؟ أم لما حمله عزفه من شجن؟

زار جدّه في "المنسيّة" في إحدى المرّات وقد أصبح يافعا وبدأ الشّعر يظهر على وجهه وبانت علامات "الرّجولة". صوته اخشوشن وجسده النّحيل أصبح فارعا. عانقه الجدّ "أحمد" عناقا طويلا عبّر عن شوق كبير. كانت فرحته بلقائه لا توصف. يتّكئ على عكّازه. حبس "نصّر" دموعه وأخفاها عن جدّه. لقد فعل فيه الزّمان فعله. كبر. راقب الشّيب في رأسه. غزا البياض السّواد. و ظهرت التّجاعيد الكثيرة على وجهه وضعُف بصره. فكّر بألم: " آه لو أن السّنوات تُوهب لوهبته بعضا من عمري. لو تُمنح الصّحة والعافية لمنحته بعضا من صحّتي كي لا أرى انحناء ظهره وليعود مستقيما شامخا كما عهدته. أتّكئ عليه متى غدر بي الزّمان".

كان أحدهما فخورا سعيدا بالشابّ الذي يجالسه ب"الرّجل" الذي أصبح عليه ذلك الطّفل المسكين الذي كان لا يفارق حضنه باحثا عن ملاذ. و كان الآخر حزينا متألّما للشّيخوخة التي أصابت "الرّجل" الذي كان قويّا عظيما وأصبح

عجوزا منحني الظّهر. جدّته أيضا أصابها الزّمن بكثير من سهامه ولكنّها كانت أفضل حالا من زوجها. تصارع الأيّام ويبدو أنّ النّصر مازال حليفا لها. و ما آن لها أن تشيخ وتهرم مثل زوجها فكانت تداعبه قائلة "مازلت صغيرة. اسأل عمّن شاخ قبل الأوان".

عزف لهما كثيرا. وإن كان قد عزم قبل لقائهما على أن يسمعهما عزفا مبهجا فدون أن يشعر كان نايه يبكي. ينفخ فيه ويحرّك أصابعه وكأنّه يبوح لهما بما يختلج في نفسه وفي نفسيهما وما فعلته الأيّام به وبهما. سحب سوداء. غيوم تنذر بسيل جارف. قطيع يتجمّع في الحظيرة في هدوء. ظلام يزحف ويغزو سواد اللّيل نور النّهار "آه يا جدّي كم غزا الشّيب شعرك". ينصتان إليه وكل منهما يحمله خياله وذاكرته إلى زمن بعيد "يا نصّر كم من خيبات واجهتها وها أنّك تصبح رجلا تحملنا بنايك إلى البعيد. نأت بك الأيّام يا ولدي وها إنّك تعود عابر سبيل يمنحنا بعض الوفاء وبعض السّلام ". "كبرت يا نصّر. كبرت قبل الأوان. كنت يتيما وما أنت باليتيم. كنت ضيفا على الجميع عابر سبيل ما حططت رحالك في أيّ مكان. أكانت الأمكنة نافرة منك أم قبح بني الإنسان نفّرك من كلّ مكان ".

عزف. جعل الكل يفكّر ويطيل التّفكير ويخاطب نفسه. نظرات زائغة. عيون تتكلّم شفاه لا تتفوّه بالكلام. صمت يجمع الثّلاثة ويحدّث بالكثير. حكايات لا نهاية لها رغم الصّمت المخيّم.

ترسل السماء مطرا مدرارا ويعلو هطولها على صوت عزفه. فيفيقون من غفوتهم وينشرحون بقدومها وتنظر الجدّة إلى حفيدها بحبّ "يا وجه الخير. نزلت المطر بنزولك علينا". وتنتهي زيارته ويودّع جدّه وجدّته. ما كان يظنّ أنّها ستكون المرّة الأخيرة التي يرى فيها حبيبه. "الأب" الذي أنعم الله به عليه في وحدته وعند ضياع روحه .

مرّت أيّام لا يذكر كم وإذا بنبإ موت جدّه يصله. كان يريد أن يراه مرّة أخرى. شعر أن لقاءه الأخير به كان على عجل. كان فيه الكثير من الغيوم. لو كان يعلم لأطال مقامه بينهما. رأى شيخوخة زحفت إلى جدّه وما ظنّها مقدّمة الغياب. شعر بوهن أصابه وما دار بخلده أنّها إشارات الرّحيل. أحسّ أنّه يحضنه بعينيه ويقول بهما الكثير وما علم أنّها علامات الوداع الأخير.

فاجعة موته كانت شديدة الوطأة عليه وعلى أمّه. كانت ملتاعة وكأنّ جنونا أصابها. مرّة تصرخ ومرّة تبكي. "رحمك الله يا جدّي. كنت خير سند لي. معك وحدك وبرفقتك فقط ذقت طعم حنان الأب".

تنهّد وساق غنمه إلى مكان آخر ربّما كان المرعى أفضل. الحرارة المرتفعة والشّمس الحارقة جعلت من العسير إيجاد مكان معشوشب. أبصر غير بعيد منه فتاة في ريعان الشّباب. ترعى مثله. لم تنتبه إليه. كانت تهشّ أغنامها تارة وتارة أخرى ترفع صوتها بالغناء كأنّها تجعل منه رفيقا لها في هذا المكان الذي يكاد يكون مقفرا مع بداية ارتفاع الحرارة .

ابتسم وفكّر" الشّباب جميل". قد يكون عانى الكثير ولكنّ حياته لم تخل من خفقات القلب ومن لهفة العشق... زمن بعيد. مرّت سنوات كان يظنّها أصبحت طيّ النّسيان... كانت شابّة مثل هذه الفتاة راعية أغنام يتيمة الأبوين. تعيش مع عمّها وكان يسيء معاملتها ولعلّه شظف العيش وحيف الحياة هما اللّذان جعلاه قاسيا. أسرته وافرة العدد وانضمّت هي إليها صغيرة لا سند لها غيره. لا يستطيع إطعام الأفواه التي عنده فما بالك بفم جديد. ولكنّها لحمه ودمه ولا خيار له. أيطردها؟ ماذا سيقول عنه الناس؟ وقلبه لن يطاوعه. إنّها طفلة صغيرة. ستكون مطيعة وربما استفاد من وجودها معهم. وقد تتزوّج صغيرة السنّ فيكون قد كسب أجر إيوائها وإطعامها.

كبرت "نور الهدى". وأصبحت صبيّة جميلة. كلّفها عمّها برعي أغنامه. كانت أكثر ولاء وطاعة له من أبنائه وبناته. وكان وقت المرعى بالنّسبة لها السّاعات الجميلة من يومها. ففيها تجد حرّية لا تجدها في منزل عمّها وفيه تنطلق محادثة نفسها. تغنّي. تحكي. تحلم ولا مستمع لها إلا حيواناتها. لم تكن تعلم أن فتى راعيا قريب منها. حاله يشبه حالها لطالما أنصت إليها. أصغى لغنائها. فاستمتع به وحرّك أشجانه وكاد يشاركها بعزفه على النّاي لولا خشيته أن تخاف منه أو تظنّ به السّوء. استمع إلى حكاياتها وبكى لبكائها وضحك لضحكها. حلّق معها وهي تحلم ولا مستمع لها إلا نعجات وخرفان وكلب يحرسهم. أحلامها بسيطة ثوب جديد طعام لذيذ لا تدري ماهو. المهمّ أن يسدّ الرّمق ولا يجعل الجوع ينخر معدتها. طال تجسّسه عليها. وألف وجودها وما علمت به وكم شرد قطيعه وهو منشغل بذلك. وكم من مرّة كاد

يتوه منه في البراري وما اتّعظ. يذكر كيف كان قلبه يخفق كلّما بلغه صوتها شاديا مترنّما والجبل يرجّع صداه. فيهفو إلى رؤيتها وإلى سماعها. كان يرغب كثيرا في الحديث معها. أن يبثّها ما في نفسه. أن يتحادثا. يمرّ به طيفها يباغته فيشتدّ شوقه كلّما آب إلى منزله. تسكنه أحلام وأحلام. تمرّ بخياله كلّما غابت أيّاما .

غابت زمنا لا يذكر كم؟ وغاب قطيعها معها. علم أن عمّها أخذها معه للرّعي في منطقة "**السّقْي**". هناك في فصل الرّبيع يكون المرعى أكثر عشبا وخصوبة . وذلك المكان وجهة للكثير من الرّعاة خاصّة إذا كانت السّنة ممطرة. ينصبون خيامهم ويحملون بعض زادهم وحاجيّاتهم الضّروريّة ويقضون أيّاما، أسبوعا، أسبوعان، شهر. أحزنه غيابها وظنّ أنّه قد يكون ذهابا دون إيّاب. و إذا بها تعود .

لم يعد صوتها شاديا ولا انطلاقها يغمر المكان. كانت ساكنة وكأنّها فقدت النّطق. كان يرقبها من بعيد كعادته فتبدو وكأنّها لا تشعر بمن حولها تستند إلى عصاها الخاصّة بالرّعي وكأنّها تلوذ بها من شيء أو تجلس واضعة رأسها بين ركبتيها كمن يريحه من هموم الحياة. ظنّها تنشد بعض الرّاحة أو هي استراحة من تعب أصابها لقسوة الرّعي في الصّحراء أو ربّما تتعافى من مرض ألمّ بها هناك وأصابها بكل هذا الهزال والانكسار.

كثيرا ما تخيّل حوارا بل حديثا متواصلا بينهما ولكن لم تؤته الجرأة. و سيطر عليه الخجل فما استطاع الاقتراب منها. كم من مرّة دنا ثم تراجع. أمّا اليوم فإنّه عازم على المحاولة. ربّما نهرته. ربّما ظنّت به السّوء. و لكنّ صبره نفد. رغب كثيرا في الحديث معها. في التّفوّه بجمل لطالما ركّبها في خياله وعدل عنها وكوّن غيرها. جمل مبتورة وكلمات مبعثرة في خياله يحاول أن يلمّ شتاتها. و يُنشئ أخيرا قولا له معنى يبلغ مراده. مراده؟ لا يدري ماذا يبتغي منها ؟ لم يسأل نفسه يوما ماذا يريد من هذه الفتاة؟ ليس مهمّا الآن. المهمّ أن يجد منفذا للحديث معها.

تقدّم ببطء. سعل. حاول أن يصدر صوتا حتّى لا يباغتها حضوره. تفطّنت إلى وقوف شابّ أمامها. من يكون؟ لم يبد على ملامحه أو في هدوئه ما يثير

الخوف. ألقى التحيّة. بقيت صامتة عابسة. فشعر باضطراب. أهو رفض لحضوره ولتطفّله عليها؟ طلب منها شربة ماء متعلّلا بأنّه أضاع مخلاته. ضحكت وتبدّد عبوس وجهها وتلاشى تجهّمها. كانت ابتسامتها جميلة. لا يعرف لم ضحكت. بادلها الضّحك. كانت فعلا كذبة غبيّة فمخلاته على كتفه بادية للعين. أخبرته أنّها هي العطشى لا هو فقد نسيت إحضار الماء معها. زال خجله وشعر وهي ترتوي من الماء وكأنّها تطفئ لهيبا مستعرا بداخلها.

إنّها مثله وربّما أسوأ حالا منه. كلاهما ذاق اليتم بطريقة مختلفة عن الآخر. لأوّل مرّة يتحادثان وإن كان كل منهما سمع بعضا من الحكايات عن الآخر فلا شيء يخفى في "عْليم". عالم ضيّق صغير لا يخفى فيه أيّ شيء. مجالسه كثيرة والتّرثرة فيها لا حدود لها. أخبرها بتجسّسه عليها وبتردّده في محادثتها وبإنصاته إلى غنائها واستمتاعه بذلك. خجلت ولامته"ما هكذا تكون أخلاق الرجال". حاول إيجاد الأعذار"ما باليد حيلة. غلبني الحياء. كلّما عزمت على محادثتك خانني القول. خفت من ردّة فعلك وخشيت ممّا قد يقوله عنّا النّاس وخاصّة عنك وأنت تعرفين أهل "عْليم" من الحبّة يصنعون قبّة". ابتسمت "واليوم لم تخف؟ أم نسيت النّاس؟" أحسّ بالحرج ولكنّه قد عزم على أن يبوح بما في قلبه" عيل صبري. ذهابك مع عمّك إلى الصّحراء جعلني أدرك أنّك نور في حياتي المظلمة. سمّوك "نور الهدى" اسما على مسمّى. غيابك طال وشوقي لك زاد. صوتك وأنت تصدحين في المرعى مثل بلسم شاف. عندما أحضرني "الفاهم" أبي منذ سنوات إلى هذا المكان كنت أتطلّع دائما إلى تركه كما تركته أمّي. كرهته كثيرا. و مذ أبصرتك وألفت وجودك وسرى صوتك في أذني وفي قلبي. لم يعد يعنيني لا المكان ولا "الفاهم" ولا أيّ أحد. حالك مثل حالي. علّه القدر جمعنا".

كسر قيود الخجل والخوف وتكلّم. باح بمكنونات صدره ولكنّ عينيه ما تجرّأتا على النّظر صوبها وهو يتكلّم وعندما أنهى كلامه حينها تفطّن إلى دموع صامتة تنهمر من عينيها. ظنّ نفسه مثقلا بالهموم فهاهي ترزح تحت وطأة الألم. لابدّ أنّه ألم اليتم وشظف العيش. طال حديثهما. غنّت له بصوت حزين وعزف لها عزفا يدمي القلوب. لا يدري هل يصفه بلقاء المناجاة أم لقاء الشّكوى والمعاناة؟

يذكر كيف توالت اللّقاءات. و كان يعزف لها كلّما رغبت في ذلك... بمجرّد أن لامست أنامله وشفتاه الآلة الموسيقيّة خرجت النّغمات السّحريّة. أداة خشبيّة صنعتها يد الإنسان ولكنّ روحه وأنفاسه تنفخ الحياة فيها. جلست حذوه مثل طفلة هادئة مثل طفل رضيع بريء مغمضة العينين. تنتقل بروحها ومخيّلتها من عالم إلى آخر. تارة جالسة مع أمّها تحنو عليها وتداعبها. تمشّط لها شعرها. و طورا جالسة بين الصّخور وخيوط الشمس تتسلّل في حياء لتلامس روحها في يوم بارد. وطورا آخر ظلال فوقها تحميها من الحرّ في يوم ساخن. ثم وجدت نفسها محلّقة في الفضاء تزهو مع العصافير وتسافر بين الغيوم... شعر"نصّر" أنّها طارت بعيدا فقرّر أن يعيدها إلى الأرض وإن انتابه إحساس بالزّهو والفخر لما بعثه عزفه في نفسها من نشوة واستسلام.

أنهى عزفه. دموع تنهمر كالعادة. يذكر أنّها كانت كثيرة البكاء رغم سعيها المتواصل لإخفاء ذلك. أحبّت عزفه كثيرا وربما أحبّته هو أيضا. حياؤها يمنعها من التّصريح أو حتّى مجرّد التّلميح... كان يشعر أنّها تترقّب لقاءه بفارغ الصبر. إلا أنّها كانت لقاءات تكاد تكون عابرة خوف رقيب يشي بهما إلى عمّها. و لكنّهما سرقا من عمر الحزن والخوف لحظات فرح جميلة مثل الحلم أو مثل الخيال.

في إحدى المرّات وأثناء رعيه مرّ به معلّمه. أسنّ. لم يعد شابّا ولكنّ ابتسامته لم تفارقه. فرح كلاهما لرؤية الآخر. جلس المعلّم إلى جانبه ولاحظ أنّه يحمل النّاي. تجاذبا أحاديث متنوّعة. و طلب منه المعلّم أن يسمعه بعض العزف. أنصت إليه بانتباه وبدا أنّه ينساب مع الصّوت الجميل. أثنى عليه وقال له: "كنت أعرف أنّك قادر على الإبداع متى أردت". و بعد أيّام أحضر له نايا جديدا جميلا معه ورقة كُتبت بخط جميل. قرأها بتعثّر: "ابني العزيز وصديقي لم أجد أفضل من هذه القصيدة لأهديها لك. أجدها خير معبّر عن عزفك الرّائع .

أنين النّاي

أنصت إلى النّاي يحكي حكايته و من ألم الفراق يبث شكايته

مذ قُطعت من الغاب والرّجال والنّساء لأنيني يبكون
أريد صدرا مزقا برحه الفراق
لأبوح له بألم الاشتياق
فكل من قُطع عن أصله
دائما يحنّ إلى زمان وصله
وهكذا غدوت مطربا في المحافل أشدو للسّعداء وأنوح للبائسين
وكل يظنّ أنّني له رفيق
ولكنّ أيّا منهم (السّعداء والبائسين) لم يدرك حقيقة ما أنا فيه لم يكن سرّي بعيدا عن نواحي
ولكن أين هي الأذن الواعية والعين المبصرة
فالجسم مشتبك بالرّوح والرّوح متغلغلة في الجسم
ولكن أنّى لإنسان أن يبصر تلك الروح
أنين النّاي نار لا هواء
فلا كان من لم تضطرب في قلبه النّار
نار النّاي هي سورة الخمر وحميا العشق
وهكذا كان النّاي صديق من بان
و هكذا مزّقت ألحانه الحجب عن أعيننا فمن رأى مثل النّاي خليلا مشتاقا؟
إنّه يقصّ علينا حكايات الطّريق التي خضّبتها الدماء
ويروي لنا أحاديث عشق المجنون
الحكمة التي يرويها محرّمة على الذين لا يعقلون
إذ لا يشتري عذب الحديث غير الأذن الواعية

جلال الدّين الرّومي

عندما قابل "نور الهدى" أخبرها عن هديّة معلمه ومدى فرحه بها. حكى لها عن مدى كرهه للمدرسة عندما كان صغيرا وهروبه منها فقد كان يظنّ أن وجوده فيها هو الذي يمنعه عن جدّه وجدّته وعن أمّه وهو السّبب في فراقه عنهم. أخبرها عن مدى احترامه لمعلّمه :"لأوّل مرة أرغب في قراءة شيء ما. بل إنّي ما ضجرت من إعادة القراءة. لا أعرف هذا "جلال الدّين

الرّومي" ولكنّ كلامه عن النّاي جميل. أشعر أن النّاي يحكي عنّي دون أن أتكلّم. عنّي وعنك. عن طفل فارق أمه. عن فتى فرّ من مدرسته وما أدرك قيمة العلم إذ كان مسكونا بهاجس البعد. عن شابّ يعيش وحيدا بين أهله. ولكنّه وجد فيك مأوى تسكن إليه نفسه. ما أحسنت القول يوما ولكنّي أجدت العزف ليعلمك وليبوح لك بما لم يبح به لساني".

تتوسّل إليه أن يقرأ لها ما في ورقة معلّمه. تنصت باهتمام. تشدّها بعض الكلمات بعض العبارات. تطلب منه أن يتأنّى وهو يقرأ وأن يعيد القراءة. وعندما وصل إلى "إنّه يقصّ علينا حكايات الطّريق التي خضّبتها الدّماء" سألته عن معنى "خضّبتها". أخبرها أن معلّمه شرح له أنّها كلمة عادة ترتبط بالحنّاء وتزيّن المرأة بها وهنا ارتبطت بالدّماء لأن لهما نفس اللّون. فيتجهّم وجهها ويشعر أنّها تخفي شيئا ما. لا يدري ماهو ولكنّه على يقين أن وجعا ينتابها أحيانا وتنساه أحيانا أخرى. علّه يتمها. علّها تعاني في منزل عمّها؟

يذكر كيف عزم على خطبتها والذّهاب إلى عمّها من أجل ذلك. كلاهما فقير وكلاهما يتيم وحيد في حاجة للآخر فلم الانتظار؟ إنّه يجني قوته من الرّعي وليس بعاجز عن توفير ما يسدّ رمق شخصين. و كل منهما تعوّد بالقليل. لقد سكن قلبه إليها ومعها وجد بعض الدّفء الذي حُرم منه. معها ابتسم وضحك وحلم ورأى في الحياة بعض الجمال... هل لها حكاية دماء؟ و أيّ دماء؟. ما بالها تكره "حكايات الطّريق". في البداية أخذ منه الفضول مأخذا وأصبحت الأسئلة الكثيرة التي تدور في ذهنه مصدر قلق وحيرة بالنّسبة له. ثم شعر أنّه يجب أن يعرف. يريدها زوجة ولابدّ أن يعلم ما أصابها وما الذي تكتمه عنه؟

تغلّب على خجله وتردّده وأخبرها أنّه قرّر أن يتزوّجها ويريد أن تخبره بما تخفيه. يذكر كيف لمعت عيناها فرحا عندما أخبرها برغبته في الارتباط بها. ثم تلاشى فرحها وخيّم عليها صمت كئيب. فألحّ في السّؤال: "نور الهدى أخبريني. ماذا تخفين؟" نطقت أخيرا وكأنّها تتحدّى نفسها وتكسر صمتها عازمة على البوح بما يعتمل في داخلها "كان ذلك في الصّحراء عندما ذهبت رفقة عمّي. كنت أرعى في منطقة خلاء. يسودها الهدوء. كنت أحسّ بالطّمأنينة. لا أسمع إلا ثغاء خرفاني واجترارها للأعشاب. عمّي الذي

يرافقني كل يوم لازم الخيمة في ذلك الصّباح لشعوره بالإرهاق وكان لا يستطيع مفارقة فراشه. طلب منّي أن لا أبتعد عن الخيمة كثيرا ولكنّ الحيوانات ساقتني بعيدا ولم أشعر بذلك. كنت أتبعها. و مع ذلك لم أكن خائفة .كنت أظنّ المكان آمنا، لا يخفي أيّة مخاطر. اقترب منّي أحدهم. و لم أكن قد لاحظت وجوده إلا عندما باغتني من الخلف وأمسك بي. لم أكن قد تبيّنت ملامحه. ضربته. كان قويّا. شدّ وثاقي. قاومته. رأيت قبح الدنيا وبشاعتها في وجهه الكريه. نعتني بألفاظ بشعة. كان يبدو من رعاة الصحراء أو قاطع طريق؟ كنت أرتجف من الهلع وأدركت عجزي عن المقاومة فتوسّلت إليه. شممت رائحة عفنة نتنة تفوح منه. كان مثل الجيفة. رائحة عرق قاتلة وكريهة. أخبرته ودموعي تهطل وفي الحلق غصّة وبحّة واختناق أنّي يتيمة و أنّي مسكينة وأن لا يزيد من عذابي. كان وحشا هائجا لم يصغ إليّ بل دفعني بعنف وقوّة إلى الأرض فوق الرّمال وسبّني. قذفني بكلمات نابية وأمرني أن أصمت وإلا نحرني كما تُنحر الشاة واضعا مدية قديمة على عنقي. زاد خوفي وزاد استسلامي. كان يضحك من جزعي وبؤسي شامتا مقهقها. أخبرني ساخرا أن صراخي لن ينفعني بل إنّه كان يثير غريزته الحيوانيّة. بدأ حفلته. كنت أشعر بالاختناق. ظننتني أحتضر. أصابني الذهول وأحسست أنّني خرساء خوفا ويأسا من النّجاة. كانت يداه العفنة تعبث بي بعنف وكأنّه يسلخ ذبيحة. لا أعرف كم مرّ من الوقت. كان دهرا. و كان قد نزع عنّي ثيابي. جرّدني من كل ملابسي. كنت عارية. أرتجف أتمنّى موتي أو موته. أتمنّى أن ينقذني أحدهم، أن يلحق بي عمّي ويصل في الوقت المناسب. ماذا لو مرّ عابر سبيل وخلّصني من براثنه ومن مخالبه. ماذا لو استجاب الله مرّة لدعائي مرّة وحيدة يتيمة. لم أستطع المقاومة. كنت مقيّدة أسيرة. أنتفض مثل عصفور يحتضر وقد وقع في الفخّ. كان مثل أفعى يعتصرني. ينقضّ عليّ باثّا سمومه. لم يجد تجاوبا منّي. وضع قدمه على صدري وعلى وجهي. كان الألم شديدا حادّا. خارت قواي وأصبحت مثل المشلولة. هجم على جسدي الذي استسلم. نار تأكلني تأكل كل جزء منّي ورائحة الجيفة تغمرني ويزداد اختناقي ووجعي. لا أستطيع التّنفس وألم بين فخذيّ كسكّين حادّ يمزّق اللّحم. علّني دخلت في غيبوبة قصيرة. كان يرتدي

ملابسه القذرة ويرمقني بنظرة انتصار واحتقار. كانت دماء غامقة حمراء نقيّة فوق رمال الصّحراء. هناك بين رجليّ. كنت عارية جريحة. أتنفّس بصعوبة. حرّرني ولكنّي كنت أعيش تمزّقا في روحي وفي جسدي. لم أعد أرتجف من الرّعب أصبحت أرتجف من العار. عار لا ذنب لي فيه. أرتجف من الجرح الذي لن يندمل مدى الحياة. جرح يلسعني كلّما تذكّرت ما حدث. برودة كثيرا ما تحاصرني وسكون كسكون المقابر يحيط بي. كم تمنّيت الموت. دفنت الدّماء في الرّمال ودفنت سرّي معها. لن يصدّقني أحد وإن صدّقوني فهو عابر سبيل وحش صحراويّ وأنا كنت فريسته فما الجدوى من الحديث ولا حاجة بي إلى شفقتهم أو لومهم. سيجدون ما يلومونني عنه. الأنثى في عالمنا هي المذنبة دائما. هي سبب كل المصائب. لا وجود لأمّ تخفّف عنّي وتحضنني لتزيل بعضا من ألمي وبعضا من هلعي. لا وجود لأب يبحث عن قاتلي ليثأر لي وينتقم منه ولا أخ يغسل العار ويذل من أذلّني. فلمن سأشكو؟

جمعت قطيعي الذي شرد وعدت جريحة. أخبرتهم أن خنزيرا صحراويّا هاجمني وفعل بي ما فعله. قال عمّي: "إنّه خطأك لأنّك ابتعدت لا تذهبي إلى المرعى مرّة أخرى وحيدة". قلت في نفسي:"فات الأوان".

أصابني الخرس منذ تلك الحادثة. مرّت عليها شهور وصمتي كان اختيارا .كنت أريد أن أدفنها. يتم وعار كلاهما قدري. لم أخترهما ولكنّي أحاسب عليهما. ها قد عرفت. رضيت بيتمي وطبعا لن ترضى بعاري ".

تركتني وما انتظرت جوابا. ساقت أغنامها وبدت كأنّها تخلّصت من حمل ثقيل. لمحت بعض الارتياح على وجهها وإن كان حزينا جريحا. كانت تعلم جوابي. صدّقت حكايتها وأشفقت عليها كثيرا. و لكن كيف لي أن لا أتزوّج عذراء؟ ماذا يقول النّاس عنّي؟ لست مثل الرجال؟ و لكن لا ذنب لها. أنا أيضا لا ذنب لي. أريد "بنت بنوت". فتاة ما وطئها غيري. أنا من يجب أن يحمل راية عفّتها وراية فحولتي. آه يا "نور الهدى" ما وجدت من بني البشر إلا لؤما وغدرا ولكنّي ما غدرتك. ما كان لي أن اختار . ولذلك لم أعد حينها أرغب في البقاء في "عْليم". لم أكن أرغب في رؤيتك. لم أكرهك بسبب ما حدث لك. كنت أشعر بالخجل لعجزي عن فعل شيء لك. إنّي مثل الآخرين

لا أرضى إلا ببنت بكر. ب"درّة عذراء" غير مثقوبة" كما يقال. واخترت الرّحيل، السّفر، الهروب. أسماء كثيرة ولكنّ الهدف واحد أن أنسى. أنسى مثلها يتما ما اخترته. أنسى زوجة أب ما خفّف من قسوتها ومن لؤمها إلاّ حديثي مع "نور الهدى". ولكنّ "نور الهدى" أصبحت غيابا. أضحت جرحا مفتوحا. و لن يشفى إلا بالهجرة . فلأهاجر إلى ليبيا شأن كل أندادي ".

يذكر كيف كان يحادث نفسه في "وهدته". يجرّد منها ذاتا أخرى. ذاتا تنصت لوجعه ولتبريراته وتبحث معه عن منفذ لأزماته. وشعر أن ذكرى "نور الهدى" أليمة. بلغه بعد سنتين من سفره أنّها ماتت بمرض السلّ. المرض أيضا ما رحمها أو لعلّه أنقذها من سجن الحياة. ما أحسّ يوما أنّه ظلمها. كان يجد لنفسه الكثير من الأعذار لهروبه بل إنّه لطالما اعتبر نفسه الضحيّة إلا عندما أبلغته أمّه بما حصل لأخته "حسناء" في "**قْطّيس**" وكيف حاول معها ابن عمّها وخاب. "حسناء" كانت محظوظة. ذادت عن شرفها وكانت لها عائلة دافعت عنها. فنجت من الوحش الآدميّ أمّا "نور الهدى"...

يوم حدّثته أمّه بما وقع تساءل "كم من "نور الهدى" في هذه الحياة عانت ودفنت حيّة. وكم من "حسناء" قد نجت؟". عالم من الوحوش والفريسة هي المرأة. هي الضّحية. وهي المذنبة ولا ذنب لها إلاّ أنّها ولدت أنثى. ماذا لو أن ما حصل ل"نور الهدى" قد حصل لأحد بناته؟ ما عساه كان يفعل؟ لا يعلم.

شعر بعطش شديد... للذكريات وجع يشتدّ كلما تزاحمت في المخيّلة. شرب حدّ الارتواء. الحرارة في ارتفاع رغم أنّها ساعات الصّباح الأولى. له مع الحرارة والظّمإ حكايات كثيرة. ابتسم وشرب مرّة أخرى كأنّه يروي عطش الأيّام. إنّها ذكرى مؤلمة لكنّها كلما ارتسمت في ذهنه إلا وابتسم فهي الدّرس الذي جعله يدرك أن الحياة جميلة وتستحقّ أن تعاش .

كان قد عزم صحبة رفاق له على السّفر خلسة إلى ليبيا. لا يملكون جوازات سفر ولا قدرة لهم على حيازتها وامتلاكها وسمعوا عن الكثير من الشّباب والرّجال الذين عملوا هناك وجنوا أموالا طائلة دون حاجة منهم إلى هذا

الجواز. البعض منهم اسمه لم يُسجّل منذ ولد ولا كان له في يوم ما مضمون ولادة. فكيف له أن يحصل عليه؟ فهو يجهل ما الذي بإمكانه أن يفعله من أجل ذلك. وأغلبهم الجيب خاو ولو من بضعة ملاليم. فكيف لهم أن يسافروا إلى المدينة وأن يتكبّدوا مصاريف التّنقّل ومصاريف استخراج الأوراق وأن يتوهوا في أزقّتها وشوارعها؟

ليس هناك أيسر من طريق "الفلاّقة". سفر بلا مقابل. "آباؤنا وأجدادنا كانوا يفعلون ذلك فلنهوّن على أنفسنا الأمر ولننطلق متوكّلين على الله. ما اعتمدنا يوما إلا على الأقدام الحافية وعلى النيّة الصادقة وعلى الصّبر الجميل. سنسافر بعزم وثبات وبصدور منشرحة وبهمّة قويّة ". هذا ما أعلنه أحدهم وكانوا يثقون فيه. كان شابّا قويّا جريئا. ومنه استمدّوا تفاؤلهم وآمالهم. وكانت أحلامهم ومطامحهم قد أصبحت بلا حدود. ليبيا حلم كل شابّ. ستمتلئ الجيوب أموالا وتشبع البطون حدّ التّخمة. و سيشترون من هناك حقائب ستكون محمّلة بثياب جميلة وهدايا عجيبة. هذا سيحمل لأمّه "القلادة المحموديّة" التي رأتها عند سلفتها فأعجبت بها. وذلك سيحمل لحبيبته "حولي" و"عبروق" لتلبسهما في زفافهما. وذاك والده يرغب كثيرا في اللّباس التقليديّ الليبيّ "الجرد". خاصّة وأن هذا الرّداء قد أعدم به" عمر المختار" وارتبط به وبشجاعته. ومن ارتدى زيّا مثله كأنّه أصبح خليفة له.

ولن يتوانى عن إحضاره ليتباهى به الأب ويحدّثهم عن أصله وفصله كلّما ضمّه مجلس مع رجال"عْليم". يومها سخر "نصّر" وفكّر: "أترانا مجتمع تنحصر بطولاتنا في لباس وفي بضعة حكايات؟" وآخر يفكّر في أكياس الشّاي الأخضر والأحمر التي سيجلبها إلى أخته فلا تطرق باب الجيران تتسوّل بعضا منه. سيأتيها بالكثير ويكفيها مذلّة السؤال... أحلام كثيرة وجميلة دفعتهم للهروب وللسّفر. للمغامرة في الصّحراء الكبيرة لركوب المجهول. كانت الرّحلة في البداية سهلة. امتطوا سيّارة أجرة نحو "بن قردان". ثمّ تغيّر الحال. كان يجب أن يتواروا عن الأعين وأن يختفوا خاصّة عن أنظار رجال الأمن. وإلا كان السّجن مقبرة لأحلامهم. ثم إنّهم لن يسلموا من الضّرب والإهانة. البعض منهم ليس لديه ما يثبت أنّه تونسيّ .

نفد زادهم من "البسيسة" وكذلك الماء. واكتووا بقيظ الصّحراء في النّهار. ولسعتهم برودتها في اللّيل. يذكر كيف كانوا يمرّون أحيانا ببعض المنازل فتبلغ أنوفهم رائحة الطّعام . فيترقّبون اللّيل ويكلّفون واحدا منهم بإحضار بعضا منه ولو بقايا. ضحك عندما تذكّر كيف كُلّف هو بسرقة دجاجة لتكون طعاما لهم وقد بلغ منهم الجوع مبلغا. وكانت تلك الدّجاجة عنيدة تجري هنا وهناك في سرعة عجيبة ونقنقتها تنقطع. كان يلهث والعرق يتصبّب من جبينه. يخاف أن يتفطّن إليه أحد من أهل المنزل فتكون الطّامة الكبرى. وكم كان إحساسه بالنّصر عظيما عندما أمسك بها. ذكريات قد تكون مثل وخز الإبر. لكنّ رحلته تلك ومغامرته مع رفاقه جعلته يقبل على الحياة ويحبّها. عديد المرّات شعر بحنين جارف إلى "بيّة". أمّه البعيدة وظنّ أنّه لن يراها مرة أخرى. كان قاسيا فما ودّعها. لم يخبر أحدا بسفره إلا جدته. ندم لأنّه لم يعلمها أحسّ أنّه يريد معاقبتها لابتعادها عنه. لقد تركته للأيّام تطوّح به يمينا وشمالا واكتفت ببضعة لقاءات عابرة. لا يكاد يشبع منها. يكره أن يزورها عند زوجها. فلم سيخبرها؟ لن تهتمّ. وإن أعارت الأمر أهمّية فستسعى لمنعه ولإخبار "الفاهم" والده. وهو قد اتّخذ قراره ولا يريد من يعيقه. مسافات كثيرة تفصله عنها. فكّر في الطّريق أنّه قد يدفن في الصّحراء الممتدّة. بين الكثبان الرّمليّة. فلن يزوره أحد ولن يبكي على قبره عزيز ولا قريب .

ومن عساه يبكي موته؟ أمّه أو جدّته لا غير. لا مكان له في حياة أحد. ولكنّه لا يريد أن يموت ميتة الغرباء في صحراء ليس فيها إلا الرّمال وهزيز الرّياح الكئيب ودبيب الحشرات المتنوّعة .

لم يمت في الطّريق. كانت رحلة شاقّة ومرهقة ولكنّه وصل إلى "بنغازي" مع رفاقه الخمسة. إنّه لا يجيد إلا الرّعي. فليتعلّم البناء. لم يستطيعوا استئجار منزل. الأجر لن يكفي الطّعام والملبس وتوفير بعض الملاليم منه. فسكنوا في الأماكن التي يعملون بها على أن يقوموا بحراستها. وكلّما أنهوا أعمالهم انتقلوا إلى غيرها. أيّام هناك جمعت بين الحلاوة والمرارة. تعلّم الكثير. أتقن البناء وأصبح "معلّما" فيه وتذكّر وهو في الغربة قول معلّمه "كنت أعرف أنّك ستنجح في شيء ما بل في أشياء". وتذكّر معه نايه الذي أحضره وكان منذ فراقه ل"نور الهدى" ما رغب في عزف فهو يحيي

أوجاعا دُفنت أو على الأقل تناساها. وهو لا يريد أن يذكرها لا كرها ولكن خشية ألم هو في غنى عنه. بعض من إحساس بالذنب يتملّكه أحيانا ولا يسيطر عليه.

وفي ليلة شتاء بارد. طال سهرهم وامتدّ ليلهم وأرادوا بعض السّمر. يذكر كيف كان البرد شديدا وكان غطاؤهم قليلا وخبت النّيران التي يحتمون بها من القرّ وقد كان حسيسها مثل عزف جميل وما عاد في مأواهم حطب. طلبوا منه أن يعزف. واقترح صديقه "محمّد" من "ماجورة" أن يغنّي. شعر أنّه مثلهم في حاجة إلى بعض التّسلية وإلى بعض التّحليق بعيدا عن عالم الرّتابة والعمل المضني عالم الحجارة والعرق المتصبّب. عالم الجوع والشّمس الحامية. عالم الأصابع المتجمّدة من الصّقيع الباحثة عن بعض من نيران مشتعلة عن بعض من دفء ولو كان في عزف ناي وغناء بدويّ خاصّة وأن فيهما بعض روائح الأهل والأحباب هناك في جبال "ڨفصة" وباديتها .

عزف فلامس القلوب المتعبة والنّفوس المتغرّبة وغنّى "محمّد" بصوته الجميل

لو كان خاوتي وأولاد عمّي بزايدْ
ما ناكل ڨمح الدّين ولا نلبس الجرد البايدْ
لا عيب لا نسويّة لا حرث لا أماشي
لاما تحزروش عليّا راني صايب وماشي
لوّجت من الغرب والشّرق
حتّى روس الڨناطر نلوّج على ڨطرة الدّم لا من خذا بالخواطر.

يذكر أنّها كانت ليلة جميلة رغم الوهن ورغم البرد ورغم الجوع. ليلة حلم فيها ب"نور الهدى" وبلقاء جميل معها. ليلة حلم فيها بأمّه وبحديث طويل رائع يجمعهما أخبرهما ما يحمله لهما في قلبه من حبّ وشوق وحنين. مشاعر كثيرة حملها معه أثناء سفره وها قد فاضت في الغربة وما من مجيب.

أجساد تشقى من أجل لقمة العيش ومن أجل بعض القوت. نفوس بين الألم والأمل متعبة تتوق إلى لقاء قريب إلى حضن دافئ وكلمة حنون. هذا يأخذه الشّوق الكبير إلى حبيبته وذاك إلى ابنته وذلك إلى أبيه وآخر إلى إخوة لا سند لهم. أمّا هو فغربته قديمة منذ تزوّجت أمّه وهو هائم الجسد وهائم الروح. شوقه لها كبير ولكنّه ليس وليد سفره. إنّه ملازم له مذ رافقت ذلك الغريب في ذلك اليوم المشؤوم. عندما هرب وذهب إلى المرعى وهو يظنّ أن "بيّة" ستلحقه كعادتها ولكنّ "عبد الله" أخذها معه وتركه لليتم ولأسئلة الغياب ولوحشة الفراق. والآن هو في ديار الغربة. أقبل إليها هاربا من ذكرى "نور الهدى" وقسوة زوجة الأب ومن جفاء الحياة فأدرك أن لهذه الحياة مذاق العلقم ومذاق العسل. مع أصدقائه وجد بعض العزاء ووجد بعض النّور الذي يشعّ وسط ظلمة حالكة وارتسمت الابتسامات رغم السّواد ورغم الضّنك. وتعلّم الدّرس. الحياة وجد فيها ليعيشها بحلوها ومرّها. وجد بعض التّبريرات لأمّه وبدأ اللّوم والعتاب في داخله يتلاشى وحل محلّه عطف وإشفاق. إنّه شابّ. ما عاد ذلك الطّفل الصّغير. وبدأت بعض الطّلاسم تنجلي أمامه. أمّه كانت صغيرة السّن وكان لابدّ لها من زوج يصونها والزّواج خير حافظ لها من ألسنة سامّة وعيون متطفّلة لن تسلم منها مطلّقة شابّة. ستكون متّهمة أينما حلّت ومن لها بعد أمّها وأبيها؟ ولد وحيد. وماذا لو مات ذلك الولد؟ أتعيش بلا أنيس وبلا رفيق؟ الآن لها بناتها. كثيرا ما أحسّ بعدم رضاها لإنجابها فقط الإناث من زوجها الثّاني. تُبدي تبرّمها وخوفها عليهنّ. التمس لها العذر فمجتمعهم ذكوريّ يقدّس إنجاب الولد ويخجل من إنجاب الأنثى ولامها فما جدوى ذلك والله هو من يكتب أقدارنا ويمنحنا ما يشاء.

هذا ما كان يجول بخاطره وهذا ما كان يمنحه بعض الرّاحة النفسيّة في بلاد الغربة. رحيله غيّر الكثير من تفكيره. فلم يعد ذلك البائس الصّغير الذي فصلوه عن أمّه باكرا فما ارتوى من أمومتها. ترك ذلك جرحا قد لا يندمل مدى الحياة ولكنّه الآن أصبح رجلا وعليه أن لا يكون عبدا لأهواء القلب ولشوق النّفس. عندما قرّر السّفر كان قد عزم أن يثبت لنفسه وللآخرين أنّه سيفعل الكثير. سيثبت لوالده أنّه ليس في حاجة إليه ولا إلى ما تجود به عليه

زوجته. سيثبت لمعلّمه أنّه وإن لم ينجح في المدرسة فإنّه يستطيع النّجاح في دروب الحياة. فهي لم توجد فقط للمتعلّمين ولأصحاب الشّهادات. سيكون أهلا لثقته فيه. سيثبت لأمّه أنّه لم يته في غيابها. سيخفّف عنها شعورا بالنّدم ربّما خالجها أحيانا.

مطامح لا نهاية لها ولا حصر. فكّر كم كان شابّا طموحا. كم حلم وكم خطّط لأحلامه. ربّما بدت لرفاقه يومها بسيطة ولكنّها بالنسبة له كبيرة وهي التي تدفعه نحو السّبل العصيّة والدّروب الشّائكة. لا يمكن للإنسان أن يعيش دون هدف يرنو إلى تحقيقه ولو كان في نظر الآخرين تافها. يكفي أنّه ذو شأن في نظره هو. لم يكن العيش في ليبيا سهلا ولا كان الرّزق هيّنا ولا كان العيش وسط الغرباء مطمئنا ولكنّه مُصرّ على المغامرة وعلى المواصلة .

واصلت الأغنام رعيها. تخلّص من الذكريات ولو لبرهة ونظر إلى الفضاء الممتدّ أمامه والى الفتاة الرّاعية. كانت غير بعيدة منذ... تسوق قطيعها الصّغير. أتراها يتيمة مثل "نور الهدى"؟ الزّمن تغيّر ربّما حالها أفضل وممّن يرتدن المدارس وما رعيها إلا مساعدة منها لعائلتها. ابتسم"يبدو أنّه يوم لوجع الذكريات. "كبرتُ وما عاد لي سواها. أتسلّى بها. ذكرى من هنا وذكرى من هناك. غريب أمر الإنسان سريع النّسيان. كم من ألم ينتابنا ويجعلنا أسرى الأحزان ثم يمّحي ويصبح مجرّد خواطر تلوح في أفق الذاكرة وتختفي. منها ما كان يلوح لنا ذا شأن عظيم وربّما كان مصيريّا نسعى راكضين خلفه نشتهيه ثمّ يصبح أزمة مثيرة للأرق وللقلق ثمّ يضحي حملا ثقيلا وعبئا بغيضا علينا التّخلص منه ثم يمسي في قبر النّسيان دفنّاه حتّى يؤوب إلى حياتنا من جديد ويأبى فراقنا. و ليس بغريب أن نضع على الضّريح الكثير من اللّحود فربّما عاد إلينا مسخا ينغّص علينا بعضا من صفو الأيّام ".

فكّر أن الحياة كانت سخيّة معه. منحته الكثير وجادت عليه بنعم. حلم بالكثير من الأبناء. كان وحيدا فأصبح أبا لخمسة ذكور ولثلاث بنات. كانوا هبة من السّماء وجودهم في حياته ونجاحهم في الدّراسة وتفوّقهم جعله شكورا حامدا لربّه يرى في فوزهم انتصارا له على أوجاع ما عادت إلا مجرّد ذكريات. ما قضّ مضجعه إلا حال أمّه. المسكينة عاشت مظلومة. أنزل بها حيف كبير.

تحمّلت وطال صبرها. شوقه لها دائم يحمله منذ كان طفلا. تنهّد ونظر إلى قطيعه. مازال الصّباح في بدايته. إنّها أفضل ساعات النّهار عنده. الصّباح يعني أملا جديدا. يعني حياة تبعث يعني التّحرر من أرق اللّيل ومن سهاد سحيق. كره اللّيل مذ كان صغيرا فهو زمن الفقدان والغياب. زمن الإحساس ببرودة الأيّام وبصقيع القدر الذي حرمه من أمّه أو حرمته منها كما فكّر في ذلك الزّمن البعيد. كان ليله يمرّ بين الأرق والخيالات. بين الكوابيس والأحلام. لا يرجو إلاانتهاءه لينسى في الصّباح بل منذ بزوغ الفجر فينطلق متحرّرا كاسرا طوقه الحزين ففي النّور رفقة للإنسان وللحيوان. بحث عن جديد. لعبة مثيرة، رعي في الخلاء، صيد للعصافير...

عندما عاش مع أبيه كان أيضا يكره اللّيل ويراه طويلا فهو لا يريد مجالستهما ولكنّه كان يضطرّ إلى ذلك اضطرارا ربّما خوفا من أبيه ومن ملاحظات زوجته. ولمّا سافر إلى "ليبيا" لازمته عقدة اللّيل فهو برد ومعاناة وهو الخوف من المجهول من قاطع طريق في رحلته مع أصدقائه. خوف من أسرار الصّحراء وممّا تحمله من مفاجآت. ثمّ تحوّل إلى زمن مرتبط بآلام الجسد بعد عمل شاقّ.
يذكر كيف بلغه خبر موت خاله"علي" أيضا في اللّيل. ذكرى حزينة رغم مرور سنوات طويلة. كان قريبا منه صديقا له وكان يرى فيه الفارس الشابّ المغامر الذي زرع فيه حبّ الحياة وحبّ المغامرة وعلّمه تحدّي المصاعب. كان يرغب في تعلّم الفروسيّة مثله، أن يركب الخيل ويبحث عن اكتشاف جديد. ترك في نفسه أثرا بليغا وموته كان مثل سكّين غرز في القلب بنصله الحادّ فيشتدّ الوجع ويغوص في الأعماق ثم يعود أكثر إيلاما. غادرهم شابّا. لا يمكن أن ينسى وداعه له ووعده إيّاه بأن يعلّمه ركوب الفرس وكيف يتعامل معها ليصبح فارسا تذكره البوادي وحلم كثيرا بتحقيق الوعد وطال انتظاره. وفي إحدى اللّيالي في غربته وما أبشع اللّيل وما يأتي به. جاءه أحدهم بالخبر اليقين"خالك احترق في "المغرب" ومات وحيدا. يقال أنّه ما بقي منه إلا الرّماد". كان الخبر صادما له...

وأمّه؟ "بيّة". ماذا عنها؟ اليوم... يشعر بشوق كبير إليها. ربّما ظلمته بزواجها وبفراقها له ولكنّ ظلمه لها كان أكبر بكثير. كان لها مجافيا

ومفارقا. عاقبها سواء عن قصد أو دون قصد. تركها فريسة لظلم بني البشر. تركته يتيما وتركها لضعفها ولعجزها. يشاهد من بعيد. غريبا؟ شامتا؟ هازئا؟ مستسلما؟ لا يعلم. اليوم فقط وبعد كل هذه السّنين حلم كابوس وجع الذاكرة وألم الذكريات يعرّي قبح موقفه من أمّه. مرّت سنوات. عمر كامل وهو على يقين من ظلمها وتركها له دون وجه حقّ وحتّى عندما وجد لها بعض الأعذار ما حاول أن يخفّف عنها وطأة الأيّام وضيم النّفوس. ما فكّر يوما أنّها قد تكون في حاجة إليه.

انتصب واقفا عازما. كانت الأغنام والخرفان منتشرة هنا وهناك. جمعها ساخرا كم لقيت هذه الحيوانات من اهتمام وكم رعاها وسقاها وأحسن إليها وما تبادر إلى ذهنه أن يحسن إلى أمّه كما فعل معها. لا يذكر أن إساءة بدرت منه تجاه "بيّة". ولكنّه يشعر بتأنيب ولوم بصوت داخله يعاتبه. ساق قطيعه نحو الحظيرة وأعلم زوجته أنّه سيزور أمّه. ولم ينتظر ردّا منها. اتّجه صوب المحطّة غير عابئ بالحرارة المتصاعدة ولفحات الشّمس الحارقة وصوتها المرتفع وراءه. لم يكن منصتا إلاّ إلى هاتف بداخله يحثّه على الذهاب دون تردّد. هاتف يدعوه إلى العجلة ليلاقي "بيّة" هناك في " **قطّيس**"...

الفصل الثّالث
الزّيتون يموت واقفا

راقبت "بيّة" أشجار الزّيتون وتوغّلت بينها وكأنّها تستجير بها من الرّمضاء ومن وجع الذكريات. تستغيث بها وتلجأ إليها. لطالما كانت ملاذا لها وملجأ. هنا تحت ظلالها الوارفة. كفاها ما ذكرت من أحزان.استقرّ بصرها على واحدة بعينها. تكاد تجزم بل وتقسم أنّها غرست الأولى في هذه الأرض. كانت تشعر أنّها تشبهها كثيرا. في يوم من الأيّام كانوا سيقطعونها. كانوا على يقين أنّها يجب أن تقلع ومن الجذور ليغرسوا عوضا عنها شجرة أخرى. وتوسّلت إليهم أن يتركوها، أن يصبروا، أن يتريّثوا فربّما مازال في عمرها بقيّة. لا أحد يعرف مثلها ما قد أصابها من سقم ولا أحد يشعر بأوجاع الأشجار وآلامها كما تشعر هي. و تلك الشّجرة كانت عليلة. وهي مثلها. لها قدرة عجيبة على الاحتمال وصبر لا مثيل له على التكيّف مع المتغيّرات أو علّه رضوخ واستسلام لقساوة ولظروف ما اختارتها. شجرة الزّيتون ثابتة في مكانها... فيه أينعت وفيه مرضت وفيه ستموت؟ تساءلت "ترى كيف يموت الزّيتون؟ وإن متّ هل ستذكرني تلك الشّجرة؟ وتذكر كيف منعتهم من قطعها واقتلاع جذورها؟ يُقال أنّ الأشجار تفتقد أصحابها وتموت بموتهم. تراها من ناكري الجميل أم من المعترفين به؟" سمعت من أحد أحفادها عندما لاحظ مدى حرصها على بقاء تلك الشّجرة أن هناك في فلسطين. فلسطين التي تعرفها من نشرات الأخبار ومن حكايا الأفواه البلد الجريح. ليس هناك أناس يعانون مثلها بل بلدان. قال الحفيد أن شجرة زيتون هناك يزيد عمرها على ألف سنة وقال أخوه بل ألفي سنة. وقالت أخته شجرة الزّيتون شجرة مباركة ورد اسمها في القرآن الكريم. قالوا الكثير. ما لا تعلمه مثلهم. ولكنّهم يجهلون عشق شجرة الزّيتون وعشق الأرض. ما خبروه مثلها.

فكّرت شجرتها مقاومة صامدة وإن لم تختر مكانها بل اختير لها ولكنّها متشبّثة به راسخة الجذور فيه. لن تغادره وإن ماتت فستموت فيه واقفة

صامدة. أمّا "بيّة" فالبشير" قرّر أنّه آن الأوان لتُقلع من جذورها. لم يعد في حاجة إليها. كبرت وأصبحت بالنّسبة له حملا ثقيلا عليه التّخلص منه كي لا يعيقه. مذ كان طفلا وهو ينظر إلى كلّ أمور الحياة بمنطق الخسارة والرّبح. وهو لم يتعوّد إلا أن يكون رابحا .

آن لك يا "بيّة" أن تختاري. فكّرت"بعد كلّ هذا العمر الطّويل أختار؟! وماذا عساي أختار؟" "بيّة" المرأة الخنوع. المستسلمة دوما ما جال يوما في خاطرها أن تختار. تذكّرت كيف أنّها كلّما حضرت "طويزة" في شبابها وغنّت الفتيات ما عشقنه من أغان تخفي وراءها حكايات عديدة ومثيرة وتحدّثن بما يدخل إلى نفوسهنّ المسرّة لم تكن هي تجرؤ على الغناء ولا على البوح بما في صدرها رغم رغبتها الشّديدة في ذلك. كانت تريد أن تصدح بما تخفيه من قصص عديدة حلمت بها. أن تقصّ عليهنّ ما شطح به خيالها عندما كانت تتوه وراء قطيعها يقودها نحو مرعى خصيب تسوقه الغريزة. سخرت من نفسها. حتّى الحيوانات كان لها من استغلالها نصيب.

"بيّة" المستسلمة دوما. استسلاما فاق الحدّ للإنسان وللحيوان لكل من وما حولها. ماذا لو كانت لها قوّة خارقة عجيبة كتلك التي حدّثوها عنها وهي طفلة؟. قوّة أبو زيد. قوّة عنترة. قوّة "البشيربن سديرة "؟ ما حدّثوا يوما إلا عن بطولات الرّجال. ألم تكن هناك امرأة قويّة ؟ أم أنّها وإن وجدت فما رأوا فيها إلا غرائزهم وشهواتهم وطلباتهم. وإن وجدوا فيها بعض القوّة تجاهلوه وأكثر من ذلك وأدوه ولو كان بإمكان البعض لوأد الأنثى التي ابتلاه الله بها. كيف لامرأة في ذلك العالم أن تثور أن تتمرّد على أصفاد وضعها الأجداد وكادت أن تكون من المقدّسات. هي نفسها كلّما وجدت في حفيداتها خاصّة اختلافا عنها وعن بنات جيلها استنكرت ذلك وعدّته من علامات فساد هذا العصر.

تحدّق "بيّة" إلى البعيد فتبصر طيفا يظهر حينا ويتلاشى. تتأمّله وتقترب منه. تبحث عنه بين ثنايا الماضي وبين مسالك الأيّام الغابرة. كان طيف طفلة صغيرة سمراء ذات شعر حالك. تمرح في الفلاة.تنشد الكثير في البراري. ترقص خفيفة مثل طير. تكاد تطير. "بيّة" ما رقصت يوما. تثب الطّفلة هنا وهناك. ترفع رأسها عاليا. تصل إلى الأشجار فتقفز من واحدة إلى أخرى.

تتأرجح بين أغصانها. تدور حول جذوعها. تنظر إليها وتشير بيدها الصّغيرة. يد مخضّبة بالحنّاء. "بيّة" كانت تحبّ هي أيضا الحنّاء . ومنذ ماتت "الجازية" أقسمت أن لا تتزيّن بها وأن لا تقربها. تدعوها الصّغيرة لتنطلق معها. إلى أين؟ لا تعلم. وهل مازال في العمر يا صغيرة بقيّة؟ فات الكثير الكثير وما عاد إلا القليل القليل. تلك الفتاة بعيدة بل إنّها قريبة. تقطن في أعماقها منذ زمن بعيد. لم تعد "بيّة" تعرف أتعيش حاضرها أم تعيش ماضيها أم أحلامها التي قبرتها منذ عقود؟! عمر قبيح. ماذا لو يتكرّر العمر مرّتين؟ مرّة أولى لنجرّب ونتعلّم ونخطئ ومرّة ثانية لنعيش حياة كالحياة. حياة نخط كلماتها ولا يكتب لنا سطورها أحد. ماذا لو انتظرنا السّاعة الخامسة والعشرين لنعوّض فيها ما ضاع في الأربع وعشرين ساعة بيد أنّها لن تحل وسيكون الأوان قد فات.

مازالت الطفلة تحلم وترقص وتهشّ أغنامها هناك في المرعى الخصيب لامبالية. لا يشغلها إلاّ ذلك الأفق البعيد. تكاد تطير نحوه. نحو غيمة تنذر بمطر مدرار في صيف حارّ أو تحلّق بين أشعّة الشّمس لا يعنيها لهيبها ولا يخيفها. لماذا لامت "حسناء" و"سعيدة" يوم رقصتا يوم احتفلتا بالمطر؟ هي نفسها كم ودّت لو فعلت مثلهما لو كسرت أغلال الحزن... هاهي واقفة في نهاية الطّريق تلتفت وراءها فتبصر الكثير من المنعرجات وكمّا من الخيبات وعددا لا بأس به من المطبّات وما لا حصر له من الأخاديد .

كانوا يملكون أتانا يُضرب بها المثل في العمل الشاقّ والطّاعة العمياء لسيّدها. تقوم بما تعجز عنه بقيّة الحمير. وكانت تتساءل "ما الفرق بينك وبين الأتان يا "بيّة"؟" ما سمعتها يوما تنهق وما رأتها تحرن أو ترفس أو تهرب من مربضها. ولكن في أحد الأيّام باغتتهم بنهيقها المتواصل. ترفس كلّ من اقترب منها بطريقة أقرب إلى الجنون.يجهلون ما ألمّ بها. ظنّوا أنّها ستعود إلى حالتها الطبيعيّة فكم من حيوان ثار وعاد أكثر استكانة وخنوعا فهي مساعد للإنسان منذ الأزل. حيوان أليف غنى عنه. غير أن الأتان استغنت عنهم. لطالما نعتوها بالغباء ولكنّها كانت صبورة. صبورة جدّا. فلم بدا لهم صبرها غباء وجبنا واعتبروها بلا إرادة؟. وقرّرت الأتان الهروب والابتعاد. فانطلقت إلى المجهول واختارت. وما عرفوا لها فيما بعد طريقا.

ربّما ضلّت السّبيل. ربّما لاقت مصيرا مظلما أسود ولكنّه لن يكون أشدّ سوادا ممّا تعانيه. كانت تلك الأتان مماثلة لها في الخنوع وأقوى منها في تمرّدها. فكّرت من الأحمق الذي أشاع بين النّاس أن الإنسان أذكى من الحمار. من الغبيّ الذي نعت الحمار بالغبيّ. لابدّ أنّه ما شاء إلا إبعاد التّهمة عنه وإلصاقها بالحيوان المسكين .
من نصّب نفسه الحاكم والجلاّد؟ جميعهم. وكانت هي الضحيّة. ضحيّة من يا "بيّة"؟ علّها ضحيّة نفسها الضّعيفة ونفوسهم اللّئيمة. ذلك الجمل الهائج الهادر. لو تصدّت له. لو كانت قويّة النّفس لردعت هيجانه. مجرّد هدير ورغاء بثّا الخوف في نفسها. لو واجهت غرائزه الحيوانيّة لما ترك ذلك الجرح الغائر. جرح عميق وقبيح لازم نفسها ويدها كامل العمر. كلّما نظرت إليه شعرت بألم سحيق...

"بيّة" تجلس في آخر محطّات العمر. ماعادت ترغب في التّرحال . والطّفلة تدعوها إليها في إلحاح عجيب لتحلّق معها. لتسافر صحبتها إلى المجهول سفرا لا رجعة منه. سفرا مثيرا ورحلة طويلة. ألا تعلم الصّغيرة أنّها تعبت من السّير في الأرض فما بالك بالطّيران في السّماء؟ تنتظر رحلتها الأخيرة فمركبة الزّمن أنهت أسفارها وما عاد في العمر إلاّ وجع الذكريات واجترارها .

اختفى طيف الطّفلة وكأنّها يئست من ذهاب "بيّة" معها. وظهر عوضا عنها طفل صغير باك يمدّ إليها يدا نحيلة ويبدو جسده هزيلا. عبرات على محيّاه. يرجوها أن تأخذه إليها. أن تحضنه وتحميه غدر الزّمان ولؤم بني الإنسان. فتهرول نحوه غير عابئة بنظرات "عبد الله" المخيفة الزّاجرة ولا بتوسّلات أمّها وأبيها الصّامتة لترحل وتتركه. إنّه ابنها. نصرها في الحياة فلم تتخلّى عنه ولأجل من وماذا؟ واهم من يظنّ أنّها ستتخلّى عنه مرّة أخرى. جرّبت ذلك وما جنت إلا المرار. فليذهبوا كلّهم إلى هوّة بلا قرار وليتركوها مع وحيدها...لو يعلمون كم شاقت إلى مرآه...دنا الطّفل منها مبتسما فاتحا ذراعيه. لم يكن طفلا. كان رجلا. حضن "نصّر" أمّه. اغرورقت عيناها. انهمرت دموعها . دموع كتمتها عقودا ...

شعرت بالظّلام يحيط بها من كل جانب. و أصوات تأتي من بعيد ومن قريب. وكلام كثير لا تعرف فحواه ولا ترغب في المعرفة. وجوه كثيرة. لا يعنيها من تكون. تعبر أمام بصرها كأشباح في العتمة وتلمح بينهم وجها ملائكيّا تحيط به هالة من النّور هو وجه الفتاة الصّغيرة. فرحت بعودتها وأمسكت بيدها ثم أرسلت صوتها الواهن بالغناء. أغنية كم تمنّت وهي طفلة أن تشدو بها.سكنت خيالها والآن فقط تصدح بها.

ندوّر على عمر جديدْ
والحنّه وطراوة الإيدْ
عمر وهوشه والمهري يدادي بعطوشهْ
وشوشان يلغط يا سيدْ
عمر وراحهْ وجْمالو تحرث فلاحهْ
شوشان يلغط يا سيدْ
ندوّر على عمر جديدْ.

وتهاوى الجسد المنهك بوجع الذكريات ومازالت "بيّة" مصرّة على الغناء. جثت على ركبتيها لا تريد السّقوط. لن تطأطئ رأسها. أشجار الزّيتون تحيط بها تقاوم. ما عاد بالإمكان المقاومة ولا بالإمكان الصّمود. آن الأوان لتقلعي من جذورك يا "بيّة".....

انتهت 29 مارس 2019

mise en page et conversion pdf par:
SALEH MABROUKI
LE 12/04/2020.
AUTORIS2 PAR L'AUTEUR
ZAHRA SALEM

زهرة سالم .
اصيلة ولاية قفصة.متحصلة على الاستاذية في اللغة و الاداب العربية.
كلية الاداب والعلوم الانسانية بسوسة..
استاذة اولى مميزة...درست في المدارس الاعدادية و المعاهد الثانوية.

كأنها وُلدت في هذه الحياة لتُعاقب ..تكاد تجزم أنّ ما يحدث لها ماهو إلا جزاء أنوثتها...آه لو خُلقت ذكرا لتبدّل الحال و تغيّر...
الجمل ايضا كان له من عقابها نصيب..ففي يوم يُشبه هذا اليوم...لا تعلم لماذا ترتبط كل مصائبها بالأيام القائظة و بشدة الحر...
لم يكن رُغاء الجمل و هديره كالمعتاد و كان يجب عليها أن تقدّم له طعامه وكانت وحدها في المنزل....الجميع قد انطلق في دروب الحياة البدوية الوعرة...جمع الحطب...رعي الأغنام...جلب الماء....أعمال متنوعة و كثيرة...لا تنتهي و لكن لا مفر منها...بدا الجمل غاضبا..و كثيرا ما سمعت من أبيها عن ضرورة الحذر من غضب الجمل.كان يخرج من فمه كيسا هوائيا منتفخا يسمى "الهدارة" و كان موسم تزاوج بالنسبة له و هذا دليل إغراء يقوم به لجنب الأنثى و لكن لا وجود لأنثاه...توجد فقط الأنثى التي سيصب عليها جام غضبه.فحالما انحنت لتضع له طعامه غدرها و بدأ يرفس بقوة من الجانب و من الأمام و من الخلف وهي في حالة ذهول و صدمة .جمل شبق يهاجم امرأة لا حول لها ولا قوة..كيف لها أن تتغلب على هديره الشهواني.
غامت الدنيا أمامها.سواد يغشى عينيها وألم يتفاقم و قد انقضّ الحيوان الهائج على يديها حاقدا ثائرا لا حدود لغضبه..هديره الشبقي ذكّرها بليلة عُرسها ليلة العمر" كما يقولون...

من الرواية

تعود بنا ساردة رواية " وجع الذكريات " للكاتبة زهرة سالم إلى سنوات الجمر. من خمسينات القرن الماضي وما قبلها لتجعلنا نعايش بطلات روايتها من النساء المقهورات بالفقر وظلم الأقربين والأبعدين من الرجال في الريف التونسي البعيد عن رحمة السماء ولتحكي لنا عن كفاح هذه النسوة في عالم لا يرحم ضعفهن ولا يرأف بحالهن...
في قراءة هذه الرواية متعة رغم مرارات الواقع..

ابراهيم درغوثي

ISBN 978-9938-10--

الثمن 15 د.ت